تفسير سورة النور

وهى مدنية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

ربع

﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ۝١ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ ﴾

يقول تعالى : هذه ﴿ سُورَةٌ أَنزَلْنَاهَا ﴾ فيه تنبيه على الاعتناء بها ولا ينفى ما عداها ﴿ وَفَرَضْنَاهَا ﴾ قال مجاهد وقتادة: أى : بيّنا الحلال والحرام ، والأمر والنهى ، والحدود ﴿ وَأَنزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ ﴾ أى : مفسَّرات واضحات ﴿ لَّعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ ﴾ : هذه الآية الكريمة فيها حكم الزانى فى الحد ، وللعلماء فيه تفصيل ونزاع ؛ فإن الزانى لا يخلو إما أن يكون بكرًا ، وهو الذى لم يتزوج ، أو محصنا ، وهو الذى قد وَطئ فى نكاح صحيح ، وهو حر بالغ عاقل . فأما إذا كان بكرًا لم يتزوج ، فإن حده مائة جلدة ، كما فى الآية ، ويزاد على ذلك أن يُغرَّب عاما عن بلده عند جمهور العلماء ، خلافا لأبى حنيفة ، رحمه الله ؛ فإن عنده أن التغريبَ إلى رأى الإمام ، إن شاء غرَّب وإن شاء لم يغرِّب .

وحجة الجمهور فى ذلك ما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة وزيد بن خالد الجُهَنىّ ، فى الأعرابيين اللذين أتيا رسولَ الله ﷺ ، فقال أحدهما : يا رسول الله ، إن ابنى كان عَسِيفا ـ يعنى : أجيرا ـ على هذا ، فزنى بامرأته ، فافتديت ابنى منه بمائة شاة ووَلِيدَة ، فسألت أهل العلم ، فأخبرونى أن على ابنى جلد مائة وتغريبَ عام ، وأن على امرأة هذا الرجم . فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده، لأقضين بينكما بكتاب الله :الوليدة والغنم رَدٌّ عليك ، وعلى ابنك جَلْدُ مائة وتغريبُ عام . واغد يا أنيس ـ لرجل من أسلم ـ إلى امرأة هذا ، فإن اعترفت فارجمها » . فغدا عليها ، فاعترفت ، فرجمها [1] . وفى هذا دلالة على تغريب الزانى مع جلد مائة إذا كان بكرا لم يتزوج ، فأما إن كان محصنا فإنه يرجم ، كما روى الإمام مالك عن ابن عباس، أن عمر قام فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال: أما بعد ، أيها الناس ، فإن الله بعث محمدًا بالحق ، وأنزل عليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم ، فقرأناها ووَعَيْناها ، ورَجَمَ رسول الله ﷺ ورَجَمْنا بعده ، فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل : لا نجد آية الرجم فى كتاب الله ، فيضلوا بترك فريضة قد أنزلها الله ، فالرجم فى كتاب الله حق على من زنى، إذا أحصن ، من الرجال والنساء ، إذا قامت البينة ، أو الحبل ، أو الاعتراف . أخرجاه فى الصحيحين مطولا ، وهذه قطعة منه ، فيها مقصودنا ههنا [2] .

---

(١) البخارى (٢٣١٤ ، ٦٦٣٣) ومسلم (١٦٩٧ ، ١٦٩٨ / ٢٥) .

(٢) الموطأ (٢ / ٨٢٣) والبخارى (٦٨٢٩ ، ٦٨٣٠) ومسلم (١٦٩١ / ١٥) .

وقد أمر رسول الله ﷺ برجم هذه المرأة ، وهى زوجة الرجل الذى استأجر الأجير لما زنت مع الأجير . ورجم النبى ﷺ ماعزًا والغامدية . وكل هؤلاء لم يُنقَل عن رسول الله ﷺ أنه جَلدهم قبل الرجم . وإنما وردت الأحاديث الصِّحَاح المتعددة الطرق والألفاظ ، بالاقتصار على رجمهم ، وليس فيها ذكر الجلد؛ولهذا كان هذا مذهب جمهور العلماء ، وإليه ذهب أبو حنيفة ، ومالك ، والشافعى ، رحمهم الله . وذهب الإمام أحمد ، رحمه الله ، إلى أنه يجب أن يجمع على الزانى المحصَن بين الجلد للآية ، والرجم للسنة ، كما روى عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، رضى الله عنه ، أنه لما أتى بشُرَاحة ،وكانت قد زنت وهى مُحْصَنَةٌ ، فجلدها يوم الخميس،ورجمها يوم الجمعة ، ثم قال : جلدتُها بكتاب الله ، ورجمتها بسنة رسول الله ﷺ . وقد روى الإمام أحمد ومسلم ، وأهل السنن عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ : « خذوا عنى ، خذوا عنى ، قد جعل الله لهن سبيلا : البِكْر بالبِكْر ، جَلْد مائة وتغريب سنة ، والثيب بالثيب ، جلد مائة والرجم » (١) .

وقوله : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ أى : فى حكم الله . لا ترجموهما وترأفوا بهما فى شرع الله ، وليس المنهى عنه الرأفة الطبيعية على ترك الحد ، وإنما هى الرأفة التى تحمل الحاكم على ترك الحد ، فلا يجوز له ذلك .

قال مجاهد : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : إقامة الحدود إذا رُفعت إلى السلطان ، فتقام ولا تعطل . وكذا رُوى عن سعيد بن جُبَير ، وعَطَاء بن أبى رَبَاح . وقيل : المراد : فلا تقيموا الحد كما ينبغى،من شدة الضرب الزاجر عن المأثم ، وليس المراد الضرب المبرِّح .وقال عامر الشعبى : ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ قال : رحمة فى شدة الضرب . وقال عطاء : ضرب ليس بالمبرِّح . وعن عبيد الله بن عبد الله بن عمر:أن جارية لابن عمر زنت، فضرب رجليها ـ قال نافع : أراه قال : وظهرها ـ قال : قلت: ﴿ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ ، قال : يا بنى ، ورأيتنى أخذتنى بها رأفة ؟ إن الله لم يأمرنى أن أقتلها ، ولا أن أجعل جَلدها فى رأسها ، وقد أوجعت حيث ضربت .

وقوله : ﴿ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ أى : فافعلوا ذلك ؛ أقيموا الحدود على من زنى، وشددوا عليه الضرب ، ولكن ليس مبرِّحا ؛ ليرتدع هو ومن يصنع مثله بذلك . وقد جاء فى المسند عن بعض الصحابة أنه قال : يا رسول الله ، إنى لأذبح الشاة وأنا أرحمها ، فقال : « ولك فى ذلك أجر » (٢) . وقوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ : هذا فيه تنكيل للزانيين إذا جُلِدا بحضرة الناس، فإن ذلك يكون أبلغ فى زجرهما ، وأنجع فى ردعهما ، فإن فى ذلك تقريعًا وتوبيخا وفضيحة إذا كان الناس حضورا . قال الحسن البصرى فى قوله : ﴿ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ يعنى : علانية . ثم قال ابن عباس: الطائفة: الرجل فما فوقه . وقال مجاهد : الطائفة : رجل إلى الألف . وكذا قال عكرمة ؛ ولهذا قال الإمام أحمد : إن الطائفة تصدُق على واحد . وقال عطاء بن أبى رباح: اثنان . وقال الزهرى : ثلاثة نفر فصاعدا . وقال الإمام مالك : الطائفة : أربعة نفر فصاعدا ؛ لأنه لا يكون شهادة فى الزنا دون أربعة شهداء فصاعدًا . وبه قال الشافعى . وقال ربيعة : خمسة . وقال الحسن البصرى : عشرة . وقال قتادة : أمر الله أن يشهد عذابهما طائفة من المؤمنين ، أى : نفر من

(١) المسند (٥ / ٣١٧) ومسلم (١٦٩٠ / ١٢) وأبو داود (٤٤١٦) والترمذى (١٤٣٤) .
(٢) المسند (٣ / ٤٣٦) .

المسلمين ؛ ليكون ذلك موعظة وعبرة ونكالا .

﴿ ٱلزَّانِى لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾

هذا خبر من الله تعالى بأن الزانى لايَطأ إلا زانية أو مشركة ، أى : لا يطاوعه على مراده من الزنا إلا زانية عاصية أو مشركة ، لا ترى حرمة ذلك ، وكذلك : ﴿ الزَّانِيَةُ لا يَنكِحُهَا إلا زَانٍ ﴾ أى : عاص بزناه ﴿ أَوْ مُشْرِكٌ ﴾ لا يعتقد تحريمه .

قال ابـن عباس : ﴿ الزَّانِي لا يَنكِحُ إلاَّ زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً ﴾ : ليـس هـذا بالنكاح ، إنما هو الجماع ، لا يزنى بها إلا زان أو مشرك . وهذا إسناد صحيح عنه ، وقد رُوى عنه من غير وجه أيضا . وقد رُوى عن مجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير وغير واحد ، نحوُ ذلك .

وقوله تعالى : ﴿ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴾ أى : تعاطيه والتزويج بالبغايا ، أو تزويج العفائف بالفجار من الرجال . وعن ابن عباس قال : حرَّم الله الزنا على المؤمنين . وهذه الآية كقوله تعالى : ﴿ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ﴾ [النساء : ٢٥] ، وقوله : ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ ﴾ الآية [المائدة : ٥] . ومن ههنا ذهب الإمام أحمد بن حنبل إلى أنه لا يصح العقد من الرجل العفيف على المرأة البغى ما دامت كذلك حتى تستتاب ، فإن تابت صح العقد عليها وإلا فلا ،وكذلك لا يصح تزويج المرأة الحرة العفيفة بالرجل الفاجر المسافح ، حتى يتوب توبة صحيحة ؛ لقوله تعالى : ﴿وحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها بيان حكم جلد القاذف للمحصنة ، وهى الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضًا ، وليس فى هذا نزاع بين العلماء . فأما إن أقام القاذف بينة على صحة ما قاله ، رُدّ عنه الحد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ ، فأوجب على القاذف إذا لم يقم بينة على صحة ما قاله ثلاثة أحكام : أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة . الثانى : أنه ترد شهادته دائما . الثالث : أن يكون فاسقًا ليس بعدل ، لا عند الله ولا عند الناس .

ثم قال تعالى : ﴿إلا الذين تابوا من بعد ذلك وأصلحوا﴾ الآية ، اختلف العلماء فى هذا الاستثناء : هل يعود إلى الجملة الأخيرة فقط فترفع التوبة الفسق فقط ، ويبقى مردود الشهادة دائما وإن تاب ، أو يعود إلى الجملتين الثانية والثالثة ؟ أما الجلد فقد ذهب وانقضى ، سواء تاب أو أصر ، ولا حكم له بعد ذلك بلا خلاف، فذهب الإمام مالك والشافعى وأحمد بن حنبل إلى أنه إذا تاب قبلت شهادته ، وارتفع عنه حكم الفسق . ونص عليه سعيد بن المسيب وجماعة من السلف أيضًا . وقال الإمام أبو حنيفة : إنما يعود الاستثناء إلى الجملة الأخيرة فقط ، فيرتفع الفسق بالتوبة ، ويبقى مردود الشهادة

أبدًا . وممن ذهب إليه من السلف القاضى شُرَيح ، وإبراهيم النَّخَعِىّ ، وسعيد بن جُبَيْر ، ومكحول ، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر. وقال الشعبى والضحاك : لا تقبل شهادته وإن تاب ، إلا أن يعترف على نفسه بأنه قد قال البهتان، فحينئذ تقبل شهادته ، والله أعلم .

﴿ وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٦ وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٧ وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٨ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٩ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ۝١٠ ﴾

هذه الآية الكريمة فيها فَرَج للأزواج وزيادة مخرج ، إذا قذف أحدهم زوجته وتعسر عليه إقامة البينة ، أن يلاعنها ، كما أمر الله ، عز وجل ، وهو أن يحضرها إلى الإمام ، فيدعى عليها بما رماها به ، فيحلفه الحاكم أربع شهادات بالله فى مقابلة أربعة شهداء ﴿إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ﴾ أى : فيما رماها به من الزنا ، ﴿وَالْخَامِسَةُ أَنْ لَعْنَتَ اللهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ . فإذا قال ذلك، بانت منه بنفس هذا اللعان عند الشافعى وطائفة كثيرة من العلماء ،وحرمت عليه أبدًا ،ويعطيها مهرها ، ويتوجه عليها حد الزنا ، ولا يدرأ عنها العذاب إلا أن تلاعن ، فتشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين، أى: فيما رماها به ، ﴿وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ ولهذا قال : ﴿وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ﴾ يعنى : الحد ﴿أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ . وَالْخَامِسَةَ أَنْ غَضَبَ اللهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ فخصها بالغضب ، كما أن الغالب أن الرجل لا يتجشم فضيحة أهله ورميها بالزنا إلا وهو صادق معذور ، وهى تعلم صدقه فيما رماها به . ولهذا كانت الخامسة فى حقها أن غضب الله عليها . والمغضوب عليه هو الذى يعلم الحق ثم يحيد عنه .

ثم ذكر تعالى لطفه بخلقه ، ورأفته بهم ، فى شرعه لهم الفرج والمخرج من شدة ما يكون فيه من الضيق ، فقال : ﴿ وَلَوْلا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ ﴾ أى : لحرجتم ولشق عليكم كثير من أموركم ، ﴿ وَأَنَّ اللهَ تَوَّابٌ ﴾ أى : على عباده ـ وإن كان بعد الحلف والأيمان المغلظة ـ ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما يشرعه ويأمر به وفيما ينهى عنه . وقد وردت الأحاديث بمقتضى العمل بهذه الآية ، وذكر سبب نزولها ، وفيمن نزلت فيه من الصحابة ، فروى الإمام أحمد عن عِكْرِمَة ، عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا﴾ قال سعد بن عبادة ـ وهو سيد الأنصار ـ : هكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ :« يا معشر الأنصار، ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ » قالوا : يا رسول الله ، لا تَلُمه فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قَطّ إلا بكرًا ، وما طلق امرأة له قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها ،من شدة غيرته. فقال سعد : والله ـ يا رسول الله ـ إنى لأعلم أنها حق ، وأنها من الله ، ولكنى قد تعجبت أنى لو وجدت لكاعًا قد تَفَخَّذها رجل ، لم يكن لى أن أهيّجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله لا آتى بهم حتى يقضى حاجته. قال :فما لبثوا إلا يسيرًا حتى جاء هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تِيبَ عليهم ـ فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، فلم يُهيّجه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنى جئت أهلى عشاء ، فوجدتُ عندها رجلا ،

فرأيت بعينى ، وسمعت بأذنى . فكَرِهَ رسولُ اللّه ﷺ ما جاء به ، واشتدّ عليه ، واجتمعت الأنصار فقالوا : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول اللّه ﷺ هلالَ بن أمية ، ويبطل شهادته فى المسلمين . فقال هلال : واللّه إنى لأرجو أن يجعل اللّه لى منها مخرجًا . وقال هلال : يا رسول اللّه ، إنى قد أرى ما اشتد عليك مما جئت به ، واللّه يعلم إنى لصادق . فواللّه إن رسول اللّه ﷺ يريد أن يأمر بضربه ، إذ أنزل اللّه على رسول اللّه ﷺ الوحى ـ وكان إذ نزل عليه الوحى عرفوا ذلك، فى تَرَبُّد وجهه . يعنى : فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى ـ فنزلت : ﴿والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم﴾ الآية، فَسُرّى عن رسول اللّه ﷺ ، فقال : « أبشر يا هلال ، قد جعل اللّه لك فرجًا ومخرجًا » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى ، عز وجل . فقال رسول اللّه ﷺ : « أرسلوا إليها » . فأرسلو إليها ، فجاءت ، فتلاها رسول اللّه ﷺ عليهما ، وذكرهما وأخبرهما أن عذابَ الآخرة أشدّ من عذاب الدنيا . فقال هلال : واللّه ـ يا رسول اللّه ـ لقد صَدَقتُ عليها . فقالت : كذب . فقال رسول اللّه ﷺ : « لاعنوا بينهما » . فقيل لهلال : اشهد . فشهد أربع شهادات باللّه إنه لمن الصادقين ، فلما كان فى الخامسة قيل له : يا هلال ، اتق اللّه ، فإن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة،وإن هذه الموجبةُ التى توجب عليك العذاب. فقال : واللّه لا يعذبنى اللّه عليها ، كما لم يجلدنى عليها . فشهد فى الخامسة أن لعنة اللّه عليه إن كان من الكاذبين . ثم قيل لها : اشهدى أربع شهادات باللّه إنه لمن الكاذبين ، فلما كانت الخامسة قيل لها : اتقى اللّه ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ،وإن هذه الموجبةُ التى توجب عليك العذاب .فتلكأت ساعة ، ثم قالت : واللّه لا أفضح قومى . فشهدت فى الخامسة أن غضب اللّه عليها إن كان من الصادقين . ففرق رسول اللّه ﷺ بينهما، وقضى ألا يدعى ولدها لأب ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد، وقضى ألا بيت لها عليه ولا قوت لها ، من أجل أنهما يتفرقان من غير طلاق ،ولا مُتَوَفى عنها. وقال : « إن جاءت به أُصَيْهِب أُرَيْسِح حَمْش الساقين فهو لهلال ، وإن جاءت به أورق جعدًا جُمَاليًا خَدَلَّج الساقين سابغ الأليتين ، فهو الذى رميت به » . فجاءت به أورقَ جَعدًا جَمَاليًا خَدَلَّج الساقين سابغ الأليتين ، فقال رسول اللّه ﷺ : « لولا الأيمان لكان لى ولها شأن » . قال عكرمة : فكان بعد ذلك أميرًا على مصر ،وكان يدعى لأمه ولا يدعى لأب.ورواه أبو داود نحوه مختصرًا (١) .

ولهذا الحديث شواهد كثيرة فى الصحاح وغيرها من وجوه كثيرة ، فمنها ما روى البخارى عن ابن عباس ؛ أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى ﷺ بشَرِيك بن سَحْماء ، فقال النبى ﷺ : « البينة وإلا حدٌّ فى ظهرك » . فقال : يا رسول اللّه ، إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلقُ يلتمس البينة ؟ فجعل النبى ﷺ يقول:« البينة وإلا حدّ فى ظهرك » . فقال هلال:والذى بعثك بالحق إنى لصادق ،ولينزلن اللّه ما يُبرئ ظهرى من الحد. فنزل جبريل ،وأنزل عليه: ﴿والذين يرمون أزواجهم﴾ ، فقرأ حتى بلغ : ﴿إن كان من الصادقين﴾ . فانصرف النبى ﷺ ، فأرسل إليهما، فجاء هلال فشهد،والنبى ﷺ يقول:« إن اللّه يعلم أن أحدكما كاذب ، فهل منكما تائب » ؟ ثم قامت فشهدت ، فلما كانت عند الخامسة وَقَّفُوها وقالوا : إنها مُوجبة . قال ابن عباس : فتلكأت ونكصت حتى ظننا أنها ترجع ، ثم قالت : لا أفضح قومى سائر اليوم . فمضت ، فقال النبى ﷺ : « أبصِرُوها ، فإن

(١) المسند (٢١٣١) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٢٢٥٦) .

جاءت به أكحلَ العينين، سابغ الأليتين، خَدَلَّج الساقين ، فهو لشَرِيك بن سَحْمَاء». فجاءت به كذلك ، فقال النبى ﷺ : « لولا ما مضى من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن» . انفرد به البخارى من هذا الوجه[1].

وروى الإمام أحمد عن سعيد بن جُبَير قال : سُئِلْتُ عن المتلاعنين أيفرّق بينهما ـ فى إمارة ابن الزبير ؟ فما دَرَيْتُ ما أقول ، فقمت من مكانى إلى منزل ابن عمر فقلتُ : يا أبا عبد الرحمن ، المتلاعنان أيفرق بينهما ؟ فقال : سبحان الله ، إن أول من سأل عن ذلك فلان بن فلان فقال :يا رسول الله ، أرأيت الرجل يرى امرأته على فاحشة فإن تَكَلَّم تكلم بأمر عظيم ، وإن سكت سكت على مثل ذلك . فسكت فلم يجبه ، فلما كان بعد ذلك أتاه فقال : الذى سألتك عنه قد ابتُليت به . فأنزل الله تعالى هذه الآيات فى سورة النور : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ حتى بلغ : ﴿أَنْ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ . فبدأ بالرجل فوعظه وذكّره ، وأخبره أن عذاب الدنيا أهونُ من عذاب الآخرة ، فقال : والذى بعثك بالحق ما كَذَبْتُك . ثم ثنى بالمرأة فوعظها وذكّرها ، وأخبرها أن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فقالت : والذى بعثك بالحق ، إنه لكاذب . قال : فبدأ بالرجل ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، والخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين . ثم ثنى بالمرأة فشهدت أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ثم فَرَّقَ بينهما . رواه النسائى . وأخرجاه فى الصحيحين[2].

وروى الإمام أحمد عن عبد الله [بن مسعود] قال: كنَّا جلوسًا عشية الجمعة فى المسجد ، فقال رجل من الأنصار : أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتلته قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ والله لَئن أصبحت صحيحا لأسألن رسول الله ﷺ . قال : فسأله .فقال: يا رسول الله ، إن أحدنا إذا رأى مع امرأته رجلا إن قتلته قتلتموه ، وإن تكلم جلدتموه ، وإن سكت سكت على غيظ ؟ اللهم احكم . قال : فنزلت آية اللعان ، فكان ذلك الرجل أول من ابتلى به . انفرد بإخراجه مسلم[3]. وروى الإمام أحمد أيضًا عن سهل بن سعد، قال:جاء عُوَيْمر إلى عاصم بن عَدِىّ فقال : سَلْ رسول الله ﷺ : أرأيت رجلا وجد رجلا مع امرأته فقتله ، أيقتل به أم كيف يصنع ؟ فسأل عاصم رسول الله ﷺ ، فعابَ رسول الله ﷺ المسائل . قال: فلقيه عُوَيمر فقال : ما صنعتَ؟ قال : ما صنعت ! إنك لم تأتنى بخير ، سألت رسول ﷺ فعاب المسائل . فقال عُوَيمر : والله لآتين رسول الله ﷺ فلأسألنه . فأتاه فوجده قد أنزل عليه فيهما . قال : فدعا بهما فَلاعَن بينهما . قال عُوَيمر :لئن انطلقتُ بها يا رسول الله لقد كذبت عليها . قال : ففارقها قبل أن يأمره رسول الله ﷺ ، فصارت سنة المتلاعنين ، فقال رسول الله ﷺ : «أبصروها ، فإن جاءت به أسحم أدعج العينين عظيم الأليتين ، فلا أراه إلا قد صدق ، وإن جاءت به أحيمر كأنه وَحَرَة فلا أراه إلا كاذبًا». فجاءت به على النعت المكروه. أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة إلا الترمذى[4].

---

(١) البخارى (٤٧٤٧) .

(٢) المسند (٤٦٩٣) والبخارى (٥٣١٢) ومسلم (١٤٩٣ / ٤) والنسائى فى الكبرى (١١٣٥٧) .

(٣) المسند (٤٠٠١) ومسلم (١٤٩٥ / ١٠) .

(٤) المسند (٥ / ٣٣٤) والبخارى (٤٧٤٥) ومسلم (١٤٩٢ / ١) وأبو داود (٢٢٤٥) .

وروى الحافظ أبو يعلى عن أنس بن مالك ، قال : لأول لعان كان فى الإسلام أن شَرِيكَ بن سَحْمَاء قذَفه هلال بن أمية بامرأته ، فرفعه إلى رسول الله ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « أربعة شهود وإلا فَحَدٌّ فى ظهرك » . فقال : يا رسول الله ، إن الله يعلم أنى لصادق ، ولينزلن الله عليك ما يبرئ به ظهرى من الجلد. فأنزل الله آية اللعان : ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ﴾ إلى آخر الآية. قال: فدعاه النبى ﷺ فقال: « اشهد بالله إنك لمن الصادقين فيما رميتها به من الزنا » فشهد بذلك أربع شهادات ، ثم قال له فى الخامسة : « ولعنة الله عليك إن كنتَ من الكاذبين فيما رميتها به من الزنا » ، ففعل. ثم دعاها رسول الله ﷺ فقال: « قومى فاشهدى بالله إنه لمن الكاذبين فيما رماك به من الزنا » . فشهدت بذلك أربع شهادات ، ثم قال لها فى الخامسة : « وغَضب الله عليك إن كان من الصادقين فيما رماك به من الزنا » ، فقالت. فلما كانت الرابعة أو الخامسة سكتت سكتة ، حتى ظنوا أنها ستعترف ، ثم قالت: لا أفضح قومى سائر اليوم. فمضت على القول ، ففرَّق رسول الله ﷺ بينهما ، وقال: «انظروا، فإذا جاءت به جَعْدًا حَمْشَ الساقين ، فهو لشَرِيك بن سَحْماء ، وإن جاءت به أبيض سبطا ضيق العينين فهو لهلال بن أمية ». فجاءت به جَعْدًا حَمْش الساقين،فقال رسول الله ﷺ : « لولا ما نزل فيهما من كتاب الله ، لكان لى ولها شأن » (١) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ ﴾

هذه العشر الآيات كلها نزلت فى شأن عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت والفرية التى غار الله عز وجل لها ولنبيه ، صلوات الله وسلامه عليه ، فأنزل الله تعالى براءتها صيانة لعرض الرسول ﷺ، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُو بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ أى : جماعة منكم ، يعنى : ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة، فكان المقدَّم فى هذه اللعنة عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، فإنه كان يجمعه ويستوشيه ، حتى دخل ذلك فى أذهان بعض المسلمين ، فتكلموا به ، وبقى الأمر كذلك قريبًا من شهر، حتى نزل القرآن ، وسياق ذلك فى الأحاديث الصحيحة .

وروى الإمام أحمد عن عائشة زوج النبى ﷺ قالت : كان رسول الله ﷺ إذا أراد أن يخرج سَفَرًا أقرع بين نسائه،فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه، قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمى ، وخرجت مع رسول الله ﷺ ، وذلك بعدما أنزل الحجابُ ، فأنا أحْمَل فى هَودَجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ودنونا من المدينة ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذن بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى أقبلت إلى الرحل فلمست صدرى، فإذا عقْد من جَزْع ظَفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدى، فحَبَسنى ابتغاؤه . وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب ـ وهم يحسبون أنى فيه ـ قالت : وكان النساء إذ ذاك خفافًا لم يثقلن ولم يغشهن اللحمُ ، إنما يأكلن العُلْقة من الطعام . فلم يستنكر القوم ثقَل الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة

(١) أبو يعلى فى مسنده (٢٨٢٤) ورواه مسلم (١٤٩٦ / ١١) .

السن، فبعثوا الجمل وساروا ، ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت فيه ، وظننت أن القوم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ . فبينا أنا جالسة فى منزلى ، غلبتنى عينى فنمت ـ وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرّس من وراء الجيش ـ فادلج فاصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى . وقد كان رآنى قبل أن يُضرَب علىّ الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمّرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ، ولا سمعت منه كلمة غيرَ استرجاعه ، حتى أناخ راحلته ، فَوطئ على يَدها فركبتُها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا مُوغرين فى نحر الظهيرة . فهلك من هلك فى شأنى ، وكان الذى تولى كبْره عبد الله بن أبى ابن سلول. فَقَدمتُ المدينة فاشتكيت حين قدمناها شهرا ، والناس يُفيضُون فى قول أهل الإفك ، ولا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يَريبنى فى وجعى أنى لا أرى من رسول الله ﷺ اللُّطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل رسول الله ﷺ فيسلم ، ثم يقول : « كيف تِيكُم ؟ » فذلك الذى يَريبنى ولا أشعر بالشر ، حتى خرجت بعد ما نَقِهتُ وخرَجَت مَعى أم مِسطح قبل المناصع ـ وهو مُتَبَرَّزُنا ـ ولا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نَتّخذَ الكُنُف قريبا من بيوتنا ، وامرنا أمر العرب الأول فى التنزه ، وكنا نتأذى بالكُنُف أن نتخذها فى بيوتنا . فانطلقت أنا وأم مِسْطح ـ وهى ابنة أبى رُهْم بن المطلب بن عبد مناف ، وأمها ابنة صخر ابن عامر، خالة أبى بكر الصديق، وابنها مِسْطَح بن أثاثة بن عبَّاد بن المطلب ـ فأقبلت أنا وابنة أبى رهم قبَلَ بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مِسطح فى مِرطها فقالت : « تَعِس مِسْطح » . فقلت لها : بئسما قلت . تسبين رجلا قد شهد بدرا ؟ قالت : أىْ هَنْتَاه ، ألم تسمعى ما قال ؟ قلت : وماذا قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، فازددتُ مرضًا إلى مرضى . فلما رجعتُ إلى بيتى دخل على رسول الله ﷺ فسلم ، ثم قال : « كيف تِيكُم ؟ » فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوىّ ؟ ـ قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبَلهما ـ فأذنَ لى رسول الله ﷺ ، فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمَّتاه ، ما يتحدث الناس ؟ فقالت : أىْ بُنَيّة ، هَوِّنى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قطّ وضيئة ، عند رجل يحبها ، ولها ضرائر إلا أكثرن عليها . قالت : فقلتُ : سبحان الله أوقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت ، لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . فدعا رسول الله ﷺ عليًا ، وأسامة بن زيد حين استلبث الوحىُ، يستشيرهما فى فراق أهله، قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه له من الود ، فقال : يا رسول الله، هم أهلك، ولا نعلم إلا خيرا . وأما على بن أبى طالب فقال : لم يُضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وإن تسأل الجارية تصدُقك الخبر. قالت : فدعا رسول الله ﷺ بَريرة ، فقال: « أى بَريرة، هل رأيت من شىء يَريبك من عائشة؟» فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق إنْ رأيت عليها أمرا قَطّ أغمصه عليها ، أكثر من أنها جارية حديثة السن، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبى ابن سَلُول . قالت : فقال رسول الله ﷺ وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين ، مَنْ يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهل بيتى ، فوالله ما علمت على أهلى إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً ، وماكان يدخل على أهلى إلا معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : أنا أعذرك منه يا رسول

الله ، إن كان من الأوس ضربنا عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج،أمرتنا ففعلنا أمرك . قالت : فقام سعد بن عبادة ـ وهو سيد الخزرج ، وكان رجلا صالحا ، ولكن احتملته الحمية ـ فقال لسعد بن معاذ : لعمر الله لا تقتله ، ولا تقدر على قتله . فقام أُسَيد بن حُضير ـ وهو ابن عم سعد بن معاذ ـ فقال لسعد بن عبادة: كذبت ! لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين . فثاور الحيان الأوس والخزرج حتى هَمّوا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر . فلم يزل رسول الله ﷺ يُخَفِّضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله ﷺ ، قالت : وبكيت يومى ذلك ، لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى . قالت : فبينما هما جالسان عندى وأنا أبكى ، استأذنَت على امرأة من الأنصار ، فأذنتُ لها ، فجلست تبكى معى ، فبينا نحن على ذلك ، إذ دخل علينا رسول الله ﷺ فسلم ثم جلس ــ قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل لى ما قيل ، وقد لبث شهراً لا يُوحَى إليه فى شأنى شىء ــ قالت: فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس،ثم قال : أما بعد يا عائشة، فإنه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كُنت أَلْمَمْت بذنب فاستغفرى الله ثم توبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب ، تاب الله عليه . قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قَلَص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله ﷺ . فقال : والله ما أدرى ما أقول للرسول . فقلت لأمى: أجيبى عنى رسول الله . فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله . قالت : فقلت ـ وأنا جارية حديثة السن، لا أحفظ كثيرا من القرآن ـ :إنى والله لقد عرفت أنكم قد سمعتم بهذا ، حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، ولَئن قلت لكم إنى بريئة ــ والله يعلم إنى بريئة ــ لا تصدقونى بذلك . ولَئن اعترفت لكم بأمر والله عز وجل يعلم أنى بريئة تصدقونى ، وإنى والله ما أجد لى ولكم مثلا إلا كما قال أبو يوسف : ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ** ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله حينئذ أعلم أنى بريئة ، وأن الله مُبَرِّئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى، ولشأنى كان أحقرَ فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يُتلى. ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله ﷺ من مجلسه ، ولا خرج من أهل البيت أحد ، حتى أنزل الله على نبيه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى ، حتى إنه لينحدر منه مثل الجُمَان من العرق فى اليوم الشاتى ، من ثقَل القول الذى أنزل عليه . قالت : فلما سُرِّىَ عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، كان أول كلمة تكلم بها أن قال : «ابشرى يا عائشة ، أما الله فقد برّأك ». فقالت لى أمى: قومى إليه. فقلت : والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل ، هو الذى أنزل براءتى ، وأنزل الله عز وجل : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ** ﴾ عشر آيات . فأنزل الله هذه الآيات براءتى قالت : فقال أبو بكر ، رضي الله عنه ـ وكان ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره ـ : والله لا أنفق عليه شيئًا أبدًا بعد الذى قال لعائشة . فأنزل الله عز وجل : ﴿ **وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ** ﴾ [النور : ٢٢]، فقال أبو بكر : والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجَع إلى مِسطَح النفقة التى كان ينفق عليه . وقال: لا أنزعها منه أبدًا . قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينبَ بنت جحش ـ زوجَ النبى ﷺ ـ عن أمرى فقال: يا زينب ، ما علمت ، أو رأيت فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمتُ إلا

خيراً . قالت عائشة : وهى التى كانت تُسَامينى من أزواج النبى ﷺ ، فعصمها الله تعالى بالورع . وطَفِقَت أختها حَمنة بنت جحش تُحارب لها ، فهلكت فيمن هلك . أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما ، من حديث الزهرى (١) .

ثم روى البخارى عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما ذُكرَ من شأنى الذى ذُكر وما عَلمتُ به ، قام رسولُ الله ﷺ فى خطيبا ، فتشهد فَحَمدَ الله وأثنى عليه بما هو أهله ، ثم قال : « أما بعد ، أشيروا عَلَىّ فى اناس أبَنُوا أهلى ، وَايمُ الله ما علمت على أهلى إلا خيرا ، وما علمت على أهلى من سوء ، وأبَنُوهم بمَن والله ما علمتُ عليه من سوء قطّ ، ولا يدخل بيتى قط إلا وأنا حاضر ، ولا غبت فى سفر إلا غاب معى » . فقام سعد بن معاذ الأنصارى فقال : يا رسول الله ائذن أن نضرب أعناقهم ، فقام رجل من الخزرج ـ وكانت أمّ حسان بنت ثابت من رهط ذلك الرجل ـ فقال : كذبت ، أما والله لو كانوا من الأوس ما أحببتَ ان تُضرب أعناقهم . حتى كاد أن يكون بين الأوس والخزرج شرٌّ فى المسجد ، وما عَلمتُ . فلما كان مساء ذلك اليوم ، خرجت لبعض حاجتى ومعى أم مسطح ، فعثَرتْ فقالت : تَعس مسطح ، فقلت : أىْ أمّ ، تسبين ابنك ؟ فسكتت ، ثم عثَرت الثانية فقالت : تَعس مسطح . فقلت لها : أىْ أمّ ، تسبين ابنك ؟ ثم عثَرت الثالثة فقالت : تَعس مسْطح . فانتهرتها فقالت : والله ما أسبه إلا فيك ، فقلت : فى أىّ شأنى ؟ قالت : فَبَقَرت لى الحديث . فقلت : وقد كان هذا ؟ قالت : نعم والله . فرجعتُ إلى بيتى كأن الذى خرجت له لا أجد منه قليلا ولا كثيراً ، ووُعكت ، وقلت لرسول الله ﷺ : ارسلنى إلى بيت أبى . فأرسل معى الغلام ، فدخلتُ الدار ، فوجدت أم رومان فى السّفل ، وأبا بكر فوق البيت يقرأ ، فقالت أمى : ما جاء بك يا بنية ؟ فأخبرتها ، وذكرتُ لها الحديثَ ، وإذا هو لم يبلغ منها مثل ما بلغ منى ، فقالت : يا بنية ، خفّفى عليك الشأن ؛ فإنه ـ والله ـ لَقَلَّما كانت امرأة حسناء ، عند رجل يحبها ، لها ضرائر إلا حَسَدنها ، وقيل فيها ، فقلت : وقد عَلمَ به أبى ؟ قالت : نعم . قلت : ورسولُ الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، ورسول الله ﷺ . فاستَعبَرْتُ وبكيت ، فسمعَ أبو بكر صوتى ، وهو فوق البيت يقرأ ، فنزل فقال لأمى : ما شأنها ؟ قالت : بلغها الذى ذُكر من شأنها . ففاضت عيناه وقال : أقسمت عليك ـ أىْ بُنَيّة ـ إلا رجعت إلى بيتك . فَرَجعتُ ، ولقد جاء رسول الله ﷺ بيتى ، فسأل عنى خادمتى ، فقالت : لا ، والله ما علمت عليها عيبا ، إلا أنها كانت ترقد حتى تدخل الشاة فتأكل خَميرها ـ أو : عجينها ـ وانتهرها بعض أصحابه فقال : اصدُقى رَسُولَ الله ﷺ ، حتى أسقطوا لها به ، فقالت : سبحان الله . والله ما علمت عليها إلا ما يعلم الصائغ على تبر الذهب الأحمر . وبلغ الأمر ذلك الرجلَ الذى قيل له ، فقال : سبحان الله . والله ما كَشَفتُ كَنَف أنثى قط ـ قالت عائشة : فقتل شهيدا فى سبيل الله ـ قالت : وأصبح أبواى عندى ، فلم يزالا حتى دخل على رسول الله ﷺ وقد صَلّى العصر ، ثم دخل وقد اكتنفنى أبواى عن يمينى وعن شمالى ، فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أما بعد يا عائشة ، إن كنت قارفت سُوءاً أو ظَلَمت فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده » . قالت : وقد جاءت امرأة من الأنصار ، فهى جالسة بالباب ، فقلت : ألا تستحى من هذه المرأة أن تذكر شيئاً ؟ فوَعَظَ رسولُ الله ﷺ ، فالتفتّ إلى أبى ، فقلت له : أجبْه . قال : فماذا أقول ؟

(١) المسند (٦ / ١٩٤) والبخارى (٤٧٥٠) ومسلم (٢٧٧٠ / ٥٦) .

فالتفتُ إلى أمي فقلت : أجيبيه . قالت : أقول ماذا ؟ فلما لم يجيباه ، تَشَهَّدتُ فحمدتُ الله وأثنيت عليه بما هو أهله ، ثم قلت : أما بعد ، فوَالله لَئن قلت لكم إني لم أفعل ـ والله عز وجل يشهد إني لصادقة ـ ما ذاك بنافعي عندكم ، لقد تكلمتم به ، وأشْربته قلوبكم ،وإن قلت : إني قد فعلت ـ والله يعلم أني لم أفعل ـ لتقولُن: قد باءت به على نفسها ، وإني ـ والله ـ ما أجد لي ولكم مثلا ـ والتمستُ اسم يعقوب فلم أقدر عليه ـ إلا أبا يوسف حين قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨]، وأنزل الله على رسوله ﷺ من ساعته ، فسكتنا ، فَرُفع عنه وإني لأتبين السرور في وجهه، وهو يمسح جبينه ويقول : «أبشري يا عائشة ، فقد أنزل الله براءتك » ، قالت : وكنت أشد ما كنتُ غضبًا ، فقال لي أبواي : قومي إليه . فقلت : لا ، والله لا أقوم إليه ولا أحمده ولا أحمدكما ، ولكن أحمد الله الذي أنزل براءتي ، لقد سمعتموه فما أنكرتموه ولا غَيَّرتموه ،وكانت عائشة تقول : أما زينب بنت جحش فقد عصمها الله بدينها ، فلم تقل إلا خيرًا . وأما أختها حَمْنة بنت جحش ، فهلكت فيمن هلك . وكان الذي يتكلم فيه مسطح وحسان بن ثابت . وأما المنافق عبد الله بن أبي ابن سلول فَهو الذي كان يستوشيه ويجمعه،وهو الذي تولى كِبْرَه منهم هو وحمنة . قالت : وحلف أبو بكر ألا ينفع مسطحا بنافعة أبدًا ، فأنزل الله تعالى : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ﴾ ، يعني: أبا بكر ﴿وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ﴾ يعني : مسطحا ، إلى قوله : ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢]. فقال أبو بكر: بلى والله يا ربَّنا ، إنا لَنُحبُّ أن تغفر لنا وعاد له بما كان يصنع . هكذا رواه البخاري من هذا الوجه مُعَلَّقًا بصيغة الجزم (١) . وروى الإمام أحمد عن عائشة قالت : لما نزل عُذْري قام رسول الله ﷺ فذكر ذلك ، وتلا القرآن ، فلما نزل أمَرَ برجلين وامرأة فَضُربوا حدهم . وأخرجه أهل السنن الأربعة ، وقال الترمذي : هذا حديث حسن . ووقع عند أبي داود تسميتهم: حسان بن ثابت، ومِسْطح بن أثاثة ، وحَمْنة بنت جحش (٢) .

فهذه طرق متعددة عن أم المؤمنين عائشة،رضي الله عنها ،في المسانيد والصحاح والسنن وغيرها . وقد رُوي من حديث أمها أمّ رومان ، رضي الله عنها ، فروى الإمام أحمد عن أم رومان قالت : بينا أنا عند عائشة ، إذ دخلت علينا امرأة من الأنصار فقالت : فعل الله ـ بابنها ـ وفعل . فقالت : ولم؟ قالت : إنه كان فيمن حَدَّث الحديث . قالت : وأيّ حديث ؟ قالت : كذا وكذا . قالت : وقد بلغ ذلك رسولَ الله ﷺ ؟ قالت : نعم ، وبلغ أبا بكر ؟ قالت : نعم ، فخرت عائشة ، رضي الله عنها ، مغشيا عليها ، فما أفاقت إلا وعليها حمى بنافض . قالت : فقمت فدثرتها، قالت : وجاء النبي ﷺ فقال : « ما شأن هذه ؟ » قلت : يا رسول الله ، أخذتها حمى بنافض . قال : فلعله في حديث تُحدِّث به ». قالت : فاستوت له عائشة قاعدة فقالت:والله لئن حلفت لكم لا تصدقوني ، ولئن اعتذرت إليكم لا تُعذرُوني ، فمثلي ومثلكم كمثل يعقوب وبنيه حين قال ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف : ١٨] . قالت : فخرج رسول الله ﷺ ، وأنزل الله عذرها ، فرجع رسول الله ﷺ معه أبو بكر ، فدخل فقال : « يا عائشة ، إن الله تعالى قد أنزل عذرك » . فقالت : بحمد الله لا بحمدك . فقال لها أبو بكر:تقولين هذا لرسول الله ﷺ ؟ قالت: نعم . قالت : وكان

(١) البخاري (٤٧٥٧) .

(٢) المسند (٦ / ٣٥) وأبو داود (٤٤٧٤) والترمذي (٣١٨١) وحسنه الألباني .

فيمن حدث هذا الحديث رجل كان يعوله أبو بكر، فحلف ألا يصله، فأنزل الله : ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ﴾ إلى آخر الآية [النور : ٢٢] ، فقال أبو بكر : بلى . فوصله. تفرد به البخاري دون مسلم (١) .

فقوله : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ﴾ أي : بالكذب والبهت والافتراء ﴿عُصْبَةٌ﴾ أي : جماعة منكم ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ أي : يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ أي : في الدنيا والآخرة، لسانُ صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة ، وإظهار شرف لهم باعتناء الله بعائشة أم المؤمنين ، حيث أنزل الله تعالى براءتها في القرآن العظيم الذي ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت : ٤٢] ؛ ولهذا لما دخل عليها ابن عباس ، رضي الله عنه ، وهي في سياق الموت ، قال لها : أبشري ، فإنك زوجة رسول الله ﷺ ، وكان يحبك ، ولم يتزوج بكرًا غيرك ، ونزلت براءتك من السماء (٢) .

وقوله : ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ﴾ أي : لكل من تكلم في هذه القضية ورَمَى أم المؤمنين عائشة،رضي الله عنها ،بشيء من الفاحشة ،نصيب عظيم من العذاب ﴿وَالَّذِي تَوَلَّىٰ كِبْرَهُ﴾ قيل: ابتدأ به.وقيل : الذي كان يجمعه ويستوشيه ويذيعه ويشيعه ﴿لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ أي : على ذلك . ثم الأكثرون على أن المراد بذلك إنما هو عبد الله بن أبي ابن سَلُول ـ قبحه الله ولعنه ـ وقيل : بل المراد به حسان بن ثابت ، وهو قول غريب ، ولولا أنه وقع في صحيح البخاري ما قد يدل على ذلك لما كان لإيراده كبير فائدة ، فإنه من الصحابة الذين كان لهم فضائل ومناقب ومآثر ، وأحسن محاسنه أنه كان يَذُب عن رسول الله ﷺ بشعره ، وهو الذي قال له رسول الله ﷺ : هاجهم وجبريل معك » (٣) .

﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَٰذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

هذا تأديب من الله للمؤمنين في قصة عائشة ، رضي الله عنها ، حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وما ذكر من شأن الإفك ، فقال تعالى: ﴿لَوْلَا﴾ يعني : هلا ﴿إِذْ سَمِعْتُمُوهُ﴾ أي: ذلك الكلام الذي رميت به أم المؤمنين ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ أي: قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم ، فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى.وقد قيل : إنها نزلت في أبي أيوب خالد بن زيد الأنصاري وامرأته ، رضي الله عنهما ، كما قال الإمام محمد بن إسحاق ؛ أن أبا أيوب خالدَ بن زيد قالت له امرأته أم أيوب : يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ، رضي الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب . أكنتِ فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا، والله ما كنتُ لأفعله.قال: فعائشة والله خير منك . قال : فلما نزل القرآن ذكر الله ، عز وجل ، من قال في الفاحشة ما قال من أهل الإفك : ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ﴾ [النور : ١١] ، وذلك حسان وأصحابه ، الذين قالوا ما قالوا ، ثم قال تعالى: ﴿ لَّوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ الآية ، أي : كما قال أبو أيوب وصاحبته .

---

(١) المسند (٦ / ٣٦٧) والبخاري (٤٧٥١) .

(٢) البخاري (٤٧٥٣) .

(٣) مسلم (٢٤٨٦ / ١٥٣) .

وقوله : ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ﴾ إلخ ، أى : هلا ظنوا الخير ، فإن أم المؤمنين أهله وأولى به ، هذا ما يتعلق بالباطن ﴿وَقَالُوا﴾ أى : بألسنتهم ﴿هَذَا إِفْكٌ مُبِينٌ﴾ أى : كذب ظاهر على أم المؤمنين ، فإن الذى وقع لم يكن ريبة ، وذلك أن مجيء أم المؤمنين راكبة جَهْرَةً على راحلة صفوان بن المعطل فى وقت الظهيرة ، والجيش بكماله يشاهدون ذلك ، ورسول الله ﷺ بين أظهرهم، لو كان هذا الأمر فيه ريبة لم يكن هذا جَهْرَة ،ولا كانا يُقدمان على مثل ذلك على رؤوس الأشهاد ،بل كان يكون هذا ـ لو قُدر ـ خفية مستورا،فتعين أن ما جاء به أهل الإفك مما رَمَوا به أم المؤمنين هو الكذب البحت،والقول الزور، والرَّعُونة الفاحشة ، والصفقة الخاسرة . قال الله تعالى : ﴿لَوْلَا﴾ أى : هلا ﴿جَاءُوا عَلَيْهِ﴾ أى : على ما قالوه ﴿بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ﴾ يشهدون على صحة ما جاؤوا به ﴿فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ أى : فى حكم الله كاذبون فاجرون .

﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ ۝ ﴾

يقول تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ أيها الخائضون فى شأن عائشة ، بأن قبل توبتكم وإنابتكم إليه فى الدنيا ، وعفا عنكم لإيمانكم بالنسبة إلى الدار الآخرة ﴿لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ﴾ من قضية الإفك ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ . وهذا فيمن عنده إيمان يقبل الله بسببه التوبة ، كمِسْطَح ، وحسان، وحَمْنَةَ بنت جحش . فأما من خاض فيه من المنافقين كعبد الله بن أبى ابن سلول وأضرابه ، فليس أولئك مرادين فى هذه الآية ؛ لأنه ليس عندهم من الإيمان والعمل الصالح ما يعادل هذا ولا ما يعارضه . وهكذا شأن ما يرد من الوعيد على فعل معين ، يكون مطلقًا مشروطًا بعدم التوبة ، أو ما يقابله من عَمَل صالح يوازنُه أو يَرجح عليه .

ثم قال تعالى : ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ﴾ قال مجاهد ، وسعيد بن جبير : أى : يرويه بعضكم عن بعض، يقول هذا:سمعته من فلان ،وقال فلان كذا،وذكر بعضهم كذا ﴿وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِ عِلْمٌ﴾ أى : تقولون ما لا تعلمون . ثم قال تعالى : ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ أى : تقولون ما تقولون فى شأن أم المؤمنين، وتحسبون ذلك يسيرا ، ولو لم تكن زوجة النبى ﷺ لما كان هيِّنا ، فكيف وهى زوجة النبى الأمى ، خاتم الأنبياء وسيد المرسلين ، فعظيم عند الله أن يقال فى زوجة رسوله ما قيل ! الله يغار لهذا ، وهو ، سبحانه وتعالى ، لا يُقَدِّر على زوجة نبى من أنبيائه ذلك ، حاشا وكَلاَّ، ولما لم يكن ذلك ، فكيف يكون هذا فى سيدة نساء الأنبياء ، وزوجة سيد ولد آدم على الإطلاق فى الدنيا والآخرة ؟! ولهذا قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمٌ﴾ ، وفى الصحيحين : «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من سَخَط الله، لا يدرى ما تَبْلُغ ، يَهْوِى بها فى النار أبْعَد ما بين السماء والأرض». وفى رواية : « لا يلقى لها بالا » (١) .

﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ۝

(١) البخارى (٦٤٧٨) ومسلم (٢٩٨٨ / ٥٠) .

﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝ ﴾

هذا تأديب آخر بعد الأول، الأمر بالظن خيرا ، أى : إذا ذكر ما لا يليق من القول فى شأن الخيرة، فأولى ينبغى الظن بهم خيرا ، وألا يشعر نفسه سوى ذلك ، ثم إن علق بنفسه شىء من ذلك ـ وسوسة أو خيالا ـ فلا ينبغى أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « إن الله تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها ، ما لم تقل أو تعمل » . أخرجاه فى الصحيحين (١) . وقال الله تعالى : ﴿ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَا أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ أى : ما ينبغى لنا أن نفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿ سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴾ أى : سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله .

ثم قال تعالى : ﴿ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَن تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا ﴾ أى : ينهاكم الله متوعدا أن يقع منكم ما يشبه هذا أبدا ، أى : فيما يستقبل . ولهذا قال : ﴿ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أى : إن كنتم تؤمنون بالله وشرعه ، وتعظمون رسوله ﷺ ، فأما من كان متصفا بالكفر فذاك له حكم آخر .

ثم قال تعالى : ﴿ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ﴾ أى : يوضح لكم الأحكام الشرعية والحِكَمَ القَدَرِيّة ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ أى : عليم بما يصلح عباده ، حكيم فى شرْعه وقَدَره .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ۝ ﴾

هذا تأديب ثالث لمن سمع شيئا من الكلام السيئ ، فقام بذهنه شىء منه ، وتكلم به ، فلا يكثر منه ولا يشيعه ويذيعه ، فقد قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ أى: يختارون ظهور الكلام عنهم بالقبيح ﴿ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا ﴾ أى : بالحد، وفى الآخرة بالعذاب ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ أى : فردوا الأمور إليه تَرْشُدُوا .

ربع ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝ ۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝ ﴾

يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى : لولا هذا لكان امر آخر ، ولكنه تعالى رؤوف بعباده ، رحيم بهم ، فتاب على من تاب إليه من هذه القضية ، وطهر من طهر منهم بالحد الذى أقيم عليه . ثم قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ يعنى : طرائقه ومسالكه وما يأمر به ﴿ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ ﴾ هذا تنفير وتحذير من ذلك بأفصح عبارة وأوجزها وأبلغها وأحسنها . قال ابن عباس : ﴿ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ﴾ : عمله . وقال عكرمة : نزغاته. وقال قتادة : كل معصية فهى من خطوات الشيطان .

ثم قال تعالى : ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا ﴾ أى : لولا هو يرزق من يشاء التوبة والرجوع إليه ، ويزكى النفوس من شركها وفجورها ودسها وما فيها من أخلاق رديئة ،

(١) البخارى (٥٢٦٩) ومسلم (١٢٧ / ٢٠١) .

كل بحسبه ، لما حصل أحد لنفسه زكاة ولا خيرا ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ﴾ أى: من خلقه ، ويضل من يشاء ويرديه فى مهالك الضلال والغىّ . ﴿وَاللَّهُ سَمِيعٌ﴾ أى : سميع لأقوال عباده ﴿ عَلِيمٌ ﴾ بمن يستحق منهم الهدى والضلال .

﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾

يقول تعالى : ﴿ولا يأتل﴾ من الألية ، وهى: الحلف ، أى : لا يحلف ﴿أولوا الفضل منكم﴾ أى : الطَّول والصدقة والإحسان ﴿والسعة﴾ أى : الجدة ﴿أن يؤتوا أولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أى : لا تحلفوا ألا تصلوا قراباتكم المساكين والمهاجرين . وهذه فى غاية الترفق والعطف على صلة الأرحام ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وليعفوا وليصفحوا﴾ أى : عما تقدم منهم من الإساءة والأذى ، وهذا من حلمه تعالى وكرمه ولطفه بخلقه مع ظلمهم لأنفسهم .

وهذه الآية نزلت فى الصدِّيق ، حين حلف ألا ينفع مِسْطَح بن أثاثه بنافعة أبدا بعد ما قال فى عائشة ما قال ، كما تقدم فى الحديث . فلما أنزل الله براءة أم المؤمنين عائشة ، وطابت النفوس المؤمنة واستقرت ، وتاب الله على من كان تكلم من المؤمنين فى ذلك، وأقيم الحد على مَن أقيم عليه ، شَرَعَ تبارك وتعالى، يعطفُ الصديق على قريبه ونسيبه ،وهو مِسْطَح بن أثاثة ، فإنه كان ابن خالة الصديق ، وكان مسكينًا لا مال له إلا ما ينفق عليه أبو بكر،رضى الله عنه ، وكان من المهاجرين فى سبيل الله ، وقد ولَق ولَقَة (١) تاب الله عليه منها ،وضُرب الحد عليها . وكان الصديق ، رضى الله عنه ، معروفًا بالمعروف ، له الفضل والأيادى على الأقارب والأجانب . فلما نزلت هذه الآية إلى قوله : ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ الآية ، أى : فإن الجزاء من جنس العمل ، فكما تغفر ذنب من أذنب إليك يغفر الله لك، وكما تصفح يصفح عنك. فعند ذلك قال الصديق : بلى ، والله إنا نحب أن تغفر لنا يا ربنا . ثم رَجَع إلى مِسْطح ما كان يصله من النفقة،وقال : والله لا أنزعها منه أبدًا ، فى مقابلة ما كان قال ، والله لا أنفعه بنافعة أبدًا، فلهذا كان الصدّيق هو الصديق رضى الله عنه وعن بنته .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾﴾

هذا وعيد من الله تعالى للذين يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات ـ خُرِّج مخرج الغالب ـ فأمهات المؤمنين أولى بالدخول فى هذا من كل محصنة ، ولاسيما التى كانت سبب النزول ، وهى عائشة بنت الصديق ، رضى الله عنهما . وقد أجمع العلماء ، رحمهم الله ، قاطبة على أن من سبها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذى ذكر فى هذه الآية ، فإنه كافر ؛ لأنه معاند للقرآن . وفى بقية أمهات المؤمنين قولان : أصحهما أنهن كهى ، والله أعلم .

(١) أى : كذب كذبة .

وقوله تعالى: ﴿لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ﴾ الآية، كقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الآية [الاحزاب: ٥٧]. وقد ذهب بعضهم إلى أنها خاصة بعائشة. وقد اختار ابن جرير عمومها، وهو الصحيح، ويعضد العموم ما رواه ابن أبى حاتم عن أبى هريرة؛ أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قيل: يا رسول الله، وما هُنَّ؟ قال: «الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولى يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات». أخرجاه فى الصحيحين(١).

وقوله: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ عن أنس بن مالك قال: كنا عند النبى ﷺ فضحك حتى بدت نَوَاجِذُه، ثم قال: «أتدرون مِمَّ أضحك؟» قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: «من مجادلة العبد ربه يوم القيامة، يقول: يا رب، ألم تُجِرْنى من الظلم؟ فيقول: بلى. فيقول: لا أجيز علىّ شاهدًا إلا من نفسى. فيقول: كفى بنفسك اليوم عليك شهيدا، وبالكرام عليك شهودا. فيختم على فيه، ويقال لأركانه: انطقى، فتنطق بعمله، ثم يخلى بينه وبين الكلام، فيقول: بُعدًا لَكُنَّ وسُحْقًا، فعنكُنَّ كنتُ أناضل». وقد رواه مسلم والنسائى(٢). وقال قتادة: ابن آدم، والله إن عليك لَشُهودًا غيرَ متهمة فى بدنك، فراقبهم واتق الله فى سرك وعلانيتك، فإنه لا يخفى عليه خافية، الظلمة عنده ضوء، والسر عنده علانية، فمن استطاع أن يموت وهو بالله حسن الظن، فليفعل ولا قوة إلا بالله.

وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ﴾، قال ابن عباس: أى: حسابهم، وكل ما فى القرآن ﴿دِينَهُم﴾ أى: حسابهم. وكذا قال غير واحد. ثم إن قراءة الجمهور بنصب ﴿الْحَقَّ﴾ على أنه صفة لدينهم، وقرأ مجاهد بالرفع، على أنه نعت الجلالة. وقوله: ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾ أى: وعده ووعيده وحسابه هو العدل، الذى لا جور فيه.

﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾﴾

قال ابن عباس: الخبيثات من القول للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من القول. والطيبات من القول للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من القول. قال: ونزلت فى عائشة وأهل الإفك. وهكذا رُوى عن مجاهد، وعطاء، وسعيد بن جُبَير وغيرهم، واختاره ابن جرير، ووجَّهَهُ بأن الكلام القبيح أولى بأهل القبح من الناس، والكلام الطيب أولى بالطيبين من الناس، فما نسبه أهل النفاق إلى عائشة هم أولى به، وهى أولى بالبراءة والنزاهة منهم؛ ولهذا قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾. وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: الخبيثات من النساء للخبيثين من الرجال، والخبيثون من الرجال للخبيثات من النساء، والطيبات من النساء للطيبين من الرجال، والطيبون من الرجال للطيبات من النساء. وهذا ـ أيضًا ـ يرجع إلى ما قاله أولئك باللازم، أى: ما كان الله ليجعل عائشة زوجة لرسول الله ﷺ إلا وهى طيبة؛ لأنه أطيب من كل

(١) البخارى (٢٧٦٦) ومسلم (٨٩ / ١٤٥).
(٢) مسلم (٢٩٦٩ / ١٧) والنسائى فى الكبرى (١١٦٥٣).

طيب من البشر ، ولو كانت خبيثة لما صلحت له ، لا شرعًا ولا قدرا ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿أُولَٰئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ﴾ أى: هم بُعَداء عما يقوله أهل الإفك والعدوان ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ أى : بسبب ما قيل فيهم من الكذب ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ أى : عند الله فى جنات النعيم . وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ فى الجنة .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾

هذه آداب شرعية ، أدّب الله بها عباده المؤمنين ، وذلك فى الاستئذان ، أمرهم ألا يدخلوا بيوتًا غير بيوتهم حتى يستأنسوا ، أى : يستأذنوا قبل الدخول ويسلموا بعده . وينبغى أن يستأذن ثلاثًا ، فإن أذن له ، وإلا انصرف ، كما ثبت فى الصحيح : أن أبا موسى حين استأذن على عمر ثلاثًا ، فلم يؤذن له ، انصرف . ثم قال عمر : ألم اسمع صوت عبد الله بن قيس يستأذن؟ ائذنوا له . فطلبوه فوجدوه قد ذهب ، فلما جاء بعد ذلك قال : ما أرجعك ؟ قال : إنى استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لى ، وإنى سمعت النبى ﷺ يقول: « إذا استأذن أحدكم ثلاثًا ، فلم يؤذن له ، فلينصرف » . فقال عمر : لَتَأْتِيَنَّ على هذا ببينة وإلا أوجعتك ضربًا . فذهب إلى ملأ من الأنصار ، فذكر لهم ما قال عمر ، فقالوا : لا يشهد لك إلا أصغرنا . فقام معه أبو سعيد الخُدْرِىّ فأخبر عمر بذلك، فقال : ألهانى عنه الصَّفْق بالأسواق(١).

ثم ليُعْلَمْ أنه ينبغى للمستأذن على أهل المنزل ألا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن البابُ عن يمينه أو يساره ؛ لما رواه أبو داود عن عبد الله بن بُسْر ، قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم ، لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه،ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « السلام عليكم ، السلام عليكم » . وذلك أن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . تَفَرَّد به أبو داود (٢). وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لو أن امرأ اطلع عليك بغير إذن فَحَذَفته بحصاة، ففقأت عينه ، ما كان عليك من جُنَاح »(٣). وأخرج الجماعة عن جابر قال : أتيتُ النبى ﷺ فى دَين كان على أبى ، فدققتُ الباب ، فقال : « من ذا » ؟ قلت : أنا . قال : « أنا ، أنا » ، كأنه كرهه (٤).

وإنما كره ذلك لأن هذه اللفظة لا يُعرَف صاحبها حتى يُفصح باسمه أو كنيته التى هو مشهور بها، وإلا ، فكل أحد يُعبِّر عن نفسه بـ « أنا » ، فلا يحصل بها المقصود من الاستئذان ، الذى هو الاستئناس المأمور به فى الآية . وقد روى الإمام أحمد عن كَلَدَةَ بن الحنبل ، أن صفوان بن أمية بعثه فى الفتح بِلِبَأ وجَدَايَة وضَغَابيس ، والنبى ﷺ بأعلى الوادى . قال : فدخلتُ عليه ولم أسلم ولم

(١) البخارى (٦٢٤٥) ومسلم (٢١٥٣ / ٣٣) . (٢) أبو داود (٥١٨٦) .
(٣) البخارى (٦٩٠٢) ومسلم (٢١٥٨ / ٤٣) .
(٤) البخارى (٦٢٥٠) ومسلم (٢١٥٥ / ٣٨) وأبو داود (٥١٨٧) والترمذى (٢٧١١) .

أستأذن ، فقال النبى ﷺ : « ارجع فقل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » ، وذلك بعدما أسلم صفوان . ورواه أبو داود والترمذى ، وقال الترمذى : حسن غريب، لا نعرفه إلا من حديثه (١).

وقال ابن عباس : ثلاث آيات جَحَدها الناس : قال الله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات : ١٣] ، قال: ويقولون : إن أكرمهم عند الله أعظمهم بيتًا . قال : والإذن كله قد جحده الناس . قال : قلت : أستأذن على أخواتى أيتام فى حجرى ، معى فى بيت واحد ؟ قال : نعم . فرددت ليرخِّص لى، فأبى . قال: تحب أن تراها عريانة؟ قلت : لا . قال : فاستأذن. قال : فراجعته أيضًا ، فقال : أتحب أن تطيع الله ؟ قلت : نعم . قال : فاستأذن . وقال طاووس : ما من امرأة أكره إلى أن أرى عريتها من ذات محرم . قال: وكان يشدد فى ذلك . وقال ابن مسعود : عليكم الإذن على أمهاتكم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء : أيستأذن الرجل على امرأته ؟ قال : لا . وهذا محمول على عدم الوجوب ، وإلا فالأولى أن يعلمها بدخوله ولا يفاجئها به ، لاحتمال أن تكون على هيئة لا تحب أن يراها عليها . وروى ابن جُرَير عن زينب ـ امرأة عبد الله بن مسعود ـ قالت : كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب، تنحنح وبزق؛ كراهة أن يهجُم منا على أمر يكرهه . إسناد صحيح .

وقال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا ﴾ قال : تنحنحوا ـ أو: تَنَخَّموا . وعن الإمام أحمد بن حنبل ، أنه قال : إذا دخل الرجل بيته ، استحب له أن يتنحنح ، أو يحرك نعليه . ولهذا جاء فى الصحيح عن رسول الله ﷺ : أنه نَـهَى أن يطرقَ الرجل أهلَه طُروقاً ـ وفى رواية: ليلا ـ يَتَخونهم(٢). وفى الحديث الآخر : أن رسول الله ﷺ قدم المدينة نهارًا ، فأناخ بظاهرها ، وقال : « انتظروا حتى تدخل عشاء ـ يعنى : آخر النهار ـ حتى تمتشط الشَّعِثَة وتستحدّ المُغِيبة »(٣). وقال قتادة فى قوله : ﴿حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا﴾ ، قال: هو الاستئذان ثلاثًا ، فمن لم يؤذن له فيهن ، فليرجع . أما الأولى : فليسمع الحى ، وأما الثانية : فليأخذوا حذرهم ، وأما الثالثة : فإن شاؤوا أذنوا وإن شاؤوا رَدّوا . ولا تَقِفَنَّ على باب قوم ردوك عن بابهم ؛ فإن للناس حاجات ولهم أشغال ، والله أولى بالعذر . وقال مقاتل ابن حيان فى قوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ : كان الرجل فى الجاهلية إذا لقى صاحبه ، لا يسلم عليه ، ويقول: حُيِّيتَ صباحًا وحييت مساء كان ذلك تحية القوم بينهم . وكان أحدهم ينطلق إلى صاحبه فلا يستأذن حتى يقتحم، ويقول : « قد دخلتُ ». فيشق ذلك على الرجل ، ولعله يكون مع أهله، فغيَّر الله ذلك كله ، فى ستر وعفة ، وجعله نقيًا نزهًا من الدنس والقذر والدرَن ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ﴾ . وهذا الذى قاله مقاتل حسن ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ يعنى : الاستئذان خير لكم ، بمعنى : هو خير للطرفين : للمستأذن ولأهل البيت ﴿ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ .

وقوله : ﴿ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ﴾ : وذلك لما فيه من التصرف فى ملك الغير بغير إذنه ، فإن شاء أذن ، وإن شاء لم يأذن ﴿ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ﴾ أى: إذا رَدّوكم من الباب قبلَ الإذن أو بعده ﴿ فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ﴾ أى : رجوعكم أزكى لكم وأطهر ﴿ وَاللَّهُ

(١) المسند (٣ / ٤١٤) وأبو داود (٥١٧٦) والترمذى (٢٧١٠) وصححه الألبانى .
(٢) البخارى (٥٢٤٣ ، ٥٢٤٤) ومسلم (٧١٥ / ١٨٤) .
(٣) البخارى (٥٢٤٧) ومسلم (٧١٥ / ١٨١) .

بما تعملون عليم ﴾ . وقال قتادة : قال بعض المهاجرين : لقد طلبتُ عمرى كلَّه هذه الآية فما أدركتها : أن أستأذنَ على بعض إخوانى ، فيقول لى : « ارجع » ، فأرجع وأنا مغتبط لقوله: ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم ﴾ . وقال سعيد بن جبير : ﴿ وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا ﴾ أى : لا تقفوا على أبواب الناس .

وقوله : ﴿ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ : هذه الآية الكريمة أخص من التى قبلها ،وذلك أنها تقتضى جواز الدخول إلى البيوت التى ليس فيها أحد، إذا كان له فيها متاع ، بغير إذن ، كالبيوت المعد للضيف ، إذا أذن له فيه أولَ مرة ، كفى .

وقال آخرون : هى بيوت التجار ، كالخانات ، ومنازل الأسفار ، وبيوت مكة ، وغير ذلك . واختار ذلك ابن جرير ، وحكاه عن جماعة . والأول أظهر ، والله أعلم .

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم ، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه ، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم ، فإن اتفق أن وقع البصر على مُحرَّم من غير قصد ، فليصرف بصره عنه سريعًا ، كما روى مسلم عن جرير بن عبد الله البجلى قال : سألت النبى ﷺ عن نظرة الفجأة ، فأمرنى أن أصرفَ بَصَرى . وكذا رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذى والنسائى ، وقال الترمذى : حسن صحيح (١). وفى الصحيح عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ : « إياكم والجلوس على الطرقات » . قالوا : يا رسول الله ، لابد لنا من مجالسنا ، نتحدث فيها. فقال رسول الله ﷺ : « إن أبيتم ، فأعطوا الطريق حقَّه ». قالوا: وما حقّ الطريق يا رسول الله؟ قال: « غَضُّ البصر، وكَفُّ الأذى، وردّ السلام، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر »(٢). وفى صحيح البخارى : « من يكفل لى ما بين لَحيَيه و ما بين رجليه ، أكفل له الجنة »(٣).

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف : « النظر سهام سم إلى القلب » ، ولذلك أمر الله بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التى هى بواعث إلى ذلك، فقال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ﴾ . وحفظُ الفَرج تارةً يكون بمنعه من الزنا ، كما قال : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴾ [المعارج : ٢٩ ، ٣٠] وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء فى الحديث: « احفظ عورتك، إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك» (٤) . ﴿ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ﴾ أى : أطهر لقلوبهم وأنقى لدينهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿ يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ ﴾ [غافر : ١٩] . وفى الصحيح ،عن أبى هريرة ،قال : قال رسول الله ﷺ : « كُتِبَ على ابن آدم حظّه من الزنا ، أدركَ ذلك لا محالة . فزنا العينين : النظر ، وزنا اللسان : النطقُ ، وزنا الأذنين: الاستماع ، وزنا اليدين : البطش ،وزنا الرجلين : الخطى ، والنفس تَمَنّى

(١) مسلم (٢١٥٩ / ٤٥) والمسند (٤ / ٣٦١) وأبو داود (٢١٤٨) والترمذى (٢٧٧٦) .
(٢) البخارى (٢٤٦٥) ومسلم (٢١٢١ / ١١٤) . (٣) البخارى (٦٤٧٤) .
(٤) المسند (٥ / ٣ ، ٤) وأبو داود (٤٠١٧) وابن ماجه (١٩٢٠) وصححه الألبانى .

وتشتهى ، والفرج يُصَدِّق ذلك أو يكذبه » . رواه البخارى تعليقاً ، ومسلم بنحو ما تقدم [١]. وقد قال كثير من السلف : إنهم كانوا ينهون أن يحدَّ الرجل بَصَرَه إلى الأمرد . وقد شَدَّد كثير من أئمة الصوفية فى ذلك، وحرَّمه طائفة من أهل العلم، لما فيه من الافتتان ، وشَدَّد آخرون فى ذلك كثيراً جداً .

﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٣١) ﴾

هذا أمرٌ من الله تعالى للنساء المؤمنات ، وغَيْرَة منه لأزواجهنّ ، عباده المؤمنين ، وتمييز لهن عن صفة نساء الجاهلية وفعال المشركات. وكان سبب نزول هذه الآية ما ذكره مقاتل بن حيَّان قال : بلغنا ـ والله أعلم ـ أن جابر بن عبد الله الأنصارى حَدّث : أن « أسماء بنت مُرْشدَة »[٢] كانت فى محل لها فى بنى حارثة ، فجعل النساء يدخلن عليها غير مُتزرات فيبدو ما فى أرجلهن من الخلاخل ، وتبدو صدورهن وذوائبهن ، فقالت أسماء : ما أقبح هذا . فأنزل الله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ الآية .

فقوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ ﴾ أى : عما حَرَّم الله عليهن من النظر إلى غير أزواجهن . ولهذا ذهب كثير من العلماء إلى أنه : لا يجوز للمرأة النظر إلى الرجال الأجانب بشهوة ولا بغير شهوة أصلاً . واحتج كثير منهم بما رواه أبو داود والترمذى ، عن أم سلمة : أنها كانت عند رسول الله ﷺ وميمونة، قالت : فبينما نحن عنده أقبل ابنُ أمّ مكتوم ، فدخل عليه ، وذلك بعدما أمرنا بالحجاب ، فقال رسول الله ﷺ : « احتجبا منه ». فقلت :يا رسول الله ، أليس هو أعمى لا يبصرنا ولا يعرفنا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « أو عمياوان أنتما؟ ألستما تبصرانه » . ثم قال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح[٣]. وذهب آخرون من العلماء إلى جواز نظرهن إلى الأجانب بغير شهوة ، كما ثبت فى الصحيح : أن رسول الله ﷺ جَعَلَ ينظر إلى الحبشة وهم يلعبون بحرابهم يوم العيد فى المسجد ، وعائشة أم المؤمنين تنظر إليهم من ورائه، وهو يسترها منهم حتى مَلَّت ورجعت[٤].

وقوله : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ : قال سعيد بن جُبَيْر : عن الفواحش . وقال قتادة وسفيان : عما لا يحل لهن . وقال مقاتل : عن الزنا . وقال أبو العالية : كل آية أنزلت فى القرآن يذكر فيها حفظ الفروج ، فهو من الزنا ، إلا هذه الآية : ﴿ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ ﴾ ألا يراها أحد .

---

(١) البخارى (٦٣٤٣) ومسلم (٢٦٥٧ / ٢٠) .

(٢) فى المطبوعة : « أسماء بنت مرثد » وهو خطأ ، والصواب ما أثبتناه .

(٣) أبو داود (٤١١٢) والترمذى (٢٧٧٨) . (٤) البخارى (٤٥٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ﴾ أى : ولا يُظهرْنَ شيئا من الزينة للأجانب ، إلا ما لا يمكن إخفاؤه . قال ابن مسعود : كالرداء والثياب . وقال ابن عباس : وجهها وكفيها والخاتم . ورُوى عن ابن عمر ، وعطاء ، وعكرمة وغيرهم نحوُ ذلك . ويحتمل أن ابن عباس ومن تابعه أرادوا تفسير ما ظهر منها بالوجه والكفين ، وهذا هو المشهور عند الجمهور ، ويستأنس له بالحديث الذى رواه أبو داود فى سننه عن عائشة ، أن أسماء بنت أبى بكر دخلت على النبى ﷺ وعليها ثياب رقاق ، فأعرض عنها وقال : « يا أسماء، إن المرأة إذا بلغت المحيض لم يصلح أن يُرَى منها إلا هذا » وأشار إلى وجهه وكفيه . لكن قال أبو داود: هذا مرسل؛ خالد بن دُرَيك لم يسمع من عائشة [١]، فالله أعلم.

وقوله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : المقانع يعمل لها صَفَات ضاربات على صدور النساء ، لتوارى ما تحتها من صدرها وترائبها ؛ ليخالفن شعارَ نساء أهل الجاهلية ، فإنهن لم يكن يفعلن ذلك ،بل كانت المرأة تمر بين الرجال مسفحة بصدرها ، لا يواريه شىء ، وربما اظهرت عنقها وذوائب شعرها وأقرطة آذانها. فأمر الله المؤمنات أن يستترن فى هيئاتهن وأحوالهن، كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ﴾ [الاحزاب: ٥٩]. وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ والخمر : جمع خمار ، وهو ما يُخَمر به ، أى : يغطى به الرأس ، وهى التى تسميها الناس المقانع . قال سعيد بن جبير : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ ﴾ : وليشددن ﴿ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ يعنى : على النحر والصدر ، فلا يرى منه شىء . وروى البخارى عن عائشة ، قالت : يرحم الله نساء المهاجرات الاول ، لما أنزل الله : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ شَقَقْنَ مُرُوطهن فاختمرن بها [٢].

وروى أيضا عن عائشة أنها كانت تقول : لما نزلت هذه الآية : ﴿ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ أخذن أزرهن فَشَقَقنها من قبل الحواشى ، فاختمرن بها [٣].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ ﴾ يعنى : ازواجهن ﴿ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي أَخَوَاتِهِنَّ ﴾ كل هؤلاء محارم المرأة يجوز لها أن تظهر عليهم بزينتها ، ولكن من غير اقتصاد وتبهرج . وقال عِكْرِمَة فى هذه الآية : ﴿ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ آبَاءِ بُعُولَتِهِنَّ ﴾ ـ حتى فرغ منها قال: لم يذكر العم ولا الخال؛ لأنهما ينعتان لابنائهما ، ولا تضع خمارها عند العم والخال فأما الزوج فإنما ذلك كله من أجله ، فتتصنع له ما لا يكون بحضرة غيره .

وقوله : ﴿ أَوْ نِسَائِهِنَّ ﴾ يعنى : تُظهر زينتها أيضًا للنساء المسلمات دون نساء أهل الذمة ؛ لئلا تصفهن لرجالهن ، وذلك ـ وإن كان محذورًا فى جميع النساء ـ إلا أنه فى نساء أهل الذمة أشدّ ، فإنهن لا يمنعهن من ذلك مانع،وأما المسلمة فإنها تعلم أن ذلك حرام فتنزجر عنه . وقد قال رسول الله ﷺ : « لا تباشر المرأة المرأةَ ، تنعتها لزوجها كأنه ينظر إليها » . أخرجاه فى الصحيحين [٤].

---

(١) أبو داود (٤١٠٤). قلت: والحديث قد قواه البيهقى (٢ / ٢٢٦، ٧/ ٨٦)، وقد جرى العمل عليه من النساء فى عهد النبى ﷺ ، حيث كن يكشفن عن وجوههن وأيديهن بحضرته ﷺ ولا ينكر ذلك عليهن وفى ذلك عدة أحاديث. بتصرف عن : حجاب المرأة المسلمة لفضيلة الشيخ الألبانى ، وقد أفاد وأجاد فى التدليل على هذا . فليراجع .

(٢) البخارى (٤٧٥٨) . (٣) البخارى (٤٧٥٩) .

(٤) البخارى (٥٢٤١) ولم يعزه صاحب التحفة (٧ / ٤٠) لمسلم .

وقوله تعالى : ﴿ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ ﴾ يعني : من نساء المشركين ، فيجوز لها أن تظهر زينتها لها وإن كانت مشركة ؛ لأنها أمتها . وإليه ذهب سعيد بن المسيّب . وقال الأكثرون : بل يجوز لها أن تظهر على رقيقها من الرجال والنساء ، واستدلوا بالحديث الذي رواه أبو داود عن أنس أن النبي ﷺ أتى فاطمة بعبد قد وهبه لها . قال : وعلى فاطمة ثوب إذا قنّعت به رأسها لم يبلغ رجليها ، وإذا غطت به رجليها لم يبلغ رأسها ، فلما رأى النبي ﷺ ما تلقى قال : « إنه ليس عليك بأس ، إنما هو أبوك وغلامك » [(١)].

وقوله تعالى : ﴿ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرِ أُولِي الْإِرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ ﴾ يعني : كالأجراء والأتباع الذين ليسوا بأكفاء،وهم مع ذلك في عقولهم وله وخوَث ، ولا همّ لهم إلى النساء ولا يشتهونهن . قال ابن عباس : هو المغفل الذي لا شهوة له . وقال مجاهد : هو الأبلَه . وفي الصحيح عن عائشة ؛ أن مخنثاً كان يدخل على أهل رسول الله ﷺ ، وكانوا يعدّونه من غير أولي الإربة ، فدخل النبيّ ﷺ وهو ينعَت امرأة:إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع ، وإذا أدبرت أدبرت بثمان . فقال رسول الله ﷺ :« ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا،لا يدخلَنّ عليكُن » فأخرجه،فكان بالبيداء يدخل يوم كل جمعة يستطعم [(٢)]. وروى الإمام أحمد عن أم سلمة أنها قالت:دخل عليها رسول الله ﷺ وعندها مخنث ،وعندها عبد الله ابن أبي أمية يعني أخاها ، والمخنث يقول : يا عبد الله ، إن فتح الله عليكم الطائف غداً ، فعليك بابنة غيلان ، فإنها تقبل بأربع وتدبر بثمان . قال : فسمعه رسول الله ﷺ فقال لأم سلمة : « لا يدخلن هذا عليك » . أخرجاه في الصحيحين [(٣)]. وروى الإمام أحمد عن عائشة ، قالت : كان رجل يدخل على أزواج النبي ﷺ مخنث ، وكانوا يعدُّونه من غير أولي الإربة ،فدخل النبي ﷺ يوما وهو عند بعض نسائه ، وهو ينعت امرأة . فقال : إنها إذا أقبلت أقبلت بأربع،وإذا أدبرت أدبرت بثمان. فقال النبي ﷺ :« ألا أرى هذا يعلم ما هاهنا ؟ لا يدخلّن عليكم هذا » ، فحجبوه . ورواه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي[(٤)].

وقوله : ﴿ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَىٰ عَوْرَاتِ النِّسَاءِ ﴾ يعني : لصغرهم لا يفهمون أحوال النساء وعوراتهنّ من كلامهن الرخيم ، وتعطفهن في المشية وحركاتهن ، فإذا كان الطفل صغيراً لا يفهم ذلك ، فلا بأس بدخوله على النساء . فأما إن كان مراهقا أو قريبا منه ، بحيث يعرف ذلك ويدريه ، ويفرق بين الشوهاء والحسناء،فلا يمكن من الدخول على النساء.وقد ثبت في الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إياكم والدخول على النساء » . قيل: يا رسول الله ، أفرأيت الحمو؟ قال : «الحَمْوُ الموت»[(٥)].

وقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ الآية : كانت المرأة في الجاهلية إذا كانت تمشي في الطريق وفي رجلها خلخال صامت ـ لا يعلم صوته ـ ضربت برجلها الأرض ، فيسمع الرجال طنينه،فنهى الله المؤمنات عن مثل ذلك.وكذلك إذا كان شيء من زينتها مستوراً ،فتحركت بحركة لتظهر ما هو خفي ،

---

(١) أبو داود (٤١٠٦) وصححه الألباني . (٢) مسلم (٢١٨١ / ٣٣) .
(٣) المسند (٦ / ٢٩٠) والبخاري (٥٨٨٧) ومسلم (٢١٨٠ / ٣٢) .
(٤) المسند (٦ / ١٥٢) ومسلم (٢١٨١ / ٣٣) وأبو داود (٤١٠٨) .
(٥) البخاري (٥٢٣٢) ومسلم (٢١٧٢ / ٢٠) .

دخل فى هذا النهى ؛ لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ ﴾ إلى آخره . ومن ذلك أيضا أنها تنهى عن التعطر والتطيب عند خروجها من بيتها فيشم الرجال طيبها ، فقد روى أبو عيسى الترمذى عن أبى موسى، عن النبى ﷺ قال : « كل عين زانية ، والمرأة إذا استعطرت فمرّت بالمجلس فهى كذا وكذا » يعنى زانية . قال : وفى الباب عن أبى هريرة ، وهذا حسن صحيح . رواه أبو داود والنسائى[1] .

وقوله : ﴿ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ أى : افعلوا ما أمركم به من هذه الصفات الجميلة والأخلاق الجليلة ، واتركوا ما كان عليه أهل الجاهلية من الأخلاق والصفات الرذيلة، فإن الفلاح كل الفلاح فى فعل ما أمر الله به ورسوله ،وترك ما نهيا عنه ، والله تعالى هو المستعان .

﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيَامَىٰ مِنكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

اشتملت هذه الآيات الكريمات المبينة على جمل من الأحكام المحكمة ، والأوامر المبرمة ، فقوله تعالى: ﴿وأنكحوا الأيامى منكم ﴾ إلى آخره: هذا أمر بالتزويج. وقد ذهب طائفة من العلماء إلى وجوبه، على كل من قَدَر عليه . واحتجوا بظاهر قوله ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء » . أخرجاه[2]. الأيامى: جمع أيِّم ، ويقال ذلك للمرأة التى لا زوج لها ، وللرجل الذى لا زوجة له . وسواء كان قد تزوج ثم فارق ، أو لم يتزوج واحد منهما .

وقوله تعالى : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم ﴾ قال ابن عباس : رغبهم الله فى التزويج ،وأمر به الأحرار والعبيد ، ووعدهم عليه الغنى، فقال : ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . وعن ابن مسعود : التمسوا الغنى فى النكاح ، يقول الله تعالى: ﴿ إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله ﴾ . وعن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ : « ثلاثة حَقٌّ على الله عَوْنهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتَب يريد الأداء، والغازى فى سبيل الله » .رواه الإمام أحمد، والترمذى، والنسائى، وابن ماجه[3].

وقوله : ﴿ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ﴾ : هذا أمر من الله تعالى لمن لا يجد تزويجاً بالتعفف عن الحرام ، كما قال ﷺ : « يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج، فإنه أغَضُّ للبصر،وأحْصَنُ للفرج . ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وِجَاء » . وهذه

(١) الترمذى (٢٧٨٦) وأبو داود (٤١٧٣) والنسائى (٥١٢٦) ، وصححه الألبانى .
(٢) البخارى (٥٠٦٦) ومسلم (١٤٠٠ / ١) .
(٣) المسند (٢ / ٢٥١) والترمذى (١٦٥٥) والنسائى (٣٢١٨) وابن ماجه (٢٥١٨) وحسنه الألبانى .

الآية مطلقة ، والتى فى سورة النساء أخص منها ، وهى قوله تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلاً أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ﴾ ، إلى أن قال : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ﴾ [النساء : ٢٥] ، أى صبركم عن تزويج الإماء خير ؛ لأن الولد يجىء رقيقا ﴿ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

وقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَبْتَغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ : هذا أمر من الله تعالى للسادة إذا طلب منهم عبيدهم الكتابة أن يكاتبوا ، بشرط أن يكون للعبد حيلة وكسب يؤدى إلى سيده المال الذى شارطه على أدائه. وقد ذهب كثير من العلماء إلى أن هذا الأمر أمرُ إرشاد واستحباب ، لا أمر تحتم وإيجاب ، بل السيد مخير ، إذا طلب منه عبده الكتابة إن شاء كاتبه ، وإن شاء لم يكاتبه . وذهب آخرون إلى أنه يجب على السيد إذا طلب منه عبدُه ذلك ، أن يجيبه إلى ما طلب ؛ أخذاً بظاهر هذا الأمر . وقال ابن وهب : قال مالك : الأمر عندنا أنْ ليس على سيد العبد أن يكاتبه إذا سأله ذلك، ولم أسمع أحداً من الأئمة أكره أحداً على أن يكاتب عبده . قال مالك : وإنما ذلك أمر من الله ، وإذن منه للناس ، وليس بواجب . وكذا قال الثورى ، وأبو حنيفة ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وغيرهم . واختار ابن جرير قول الوجوب لظاهر الآية .

وقوله : ﴿ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ﴾ قال بعضهم : أمانة . وقال بعضهم : صدقا . وقال بعضهم: مالا. وقال بعضهم : حيلة وكسبا . وقوله: ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ اختلف المفسرون فيه ، فقال قائلون : معناه : اطرحوا لهم من الكتابة بعضها ، ثم قال بعضهم : مقدار الربع . وقيل : الثلث. وقيل : النصف . وقيل: جزء من الكتابة من غير واحد . وقال آخرون : بل المراد من قوله : ﴿ وَآتُوهُم مِّن مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ ﴾ : هو النصيب الذى فرض الله لهم من أموال الزكوات . وهذا قول الحسن ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وأبيه ، ومقاتل واختاره ابن جرير .

وقوله : ﴿ وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الآية : كان أهل الجاهلية إذا كان لأحدهم أمة ، أرسلها تزنى ، وجعل عليها ضريبة يأخذها منها كلّ وقت . فلما جاء الإسلام ، نهى الله المسلمين عن ذلك . وكان سبب نزول هذه الآية الكريمة ـ فيما ذكره غير واحد من المفسرين ، من السلف والخلف ـ فى شأن عبد الله بن أبى ابن سلول المنافق ، فإنه كان له إماء ، فكان يكرهن على البغاء طلبا لخَراجهن ، ورغبة فى أولادهن ، ورياسة منه فيما يزعم . قال السدى : أنزلت هذه الآية الكريمة فى عبد الله بن أبى ابن سلول رأس المنافقين ، وكانت له جارية تدعى معاذة ، وكان إذا نزل به ضيف أرسلها إليه ليواقعها ، إرادة الثواب منه والكرامة له . فأقبلت الجارية إلى أبى بكر ، رضى الله عنه ، فشكت إليه ذلك ، فذكره أبو بكر للنبى ﷺ ، فأمره بقبضها . فصاح عبد الله بن أبى : من يَعْذُرنى من محمد ، يغلبنا على مملوكتنا ؟ فأنزل الله فيهم هذا.

وقوله : ﴿ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا ﴾ : هذا خرج مخرج الغالب ، فلا مفهوم له . وقوله : ﴿ لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أى : من خَرَاجهن ومهورهن وأولادهن . وقد نهى رسول الله ﷺ عن كسب الحجَّام ، ومهر البَغِىّ ، وحُلْوان الكاهن (١). وقوله : ﴿ وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ اللَّهَ مِن بَعْدِ إِكْرَاهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ أى :

(١) البخارى (٢٢٣٧) ومسلم (١٥٦٧ / ٣٩) .

لهن ، وقال ابن عباس : فإن فعلتم فإن الله لهن غفور رحيم ، وإثمهن على من أكرههن . وفى الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال : « رُفع عن أمتى الخطأ والنسيان ، وما استكرهوا عليه »(١) .

ولما فصل تعالى هذه الأحكام وبيَّنها قال : ﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ ﴾ يعنى : القرآن فيه آيات واضحات مفسرات ﴿ وَمَثَلاً مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ ﴾ أى : خبرا عن الأمم الماضية ، وما حل بهم فى مخالفتهم أوامر الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِّلآخِرِينَ ﴾ [الزخرف : ٥٦] . ﴿ وَمَوْعِظَةً ﴾ أى : زاجرًا عن ارتكاب المآثم والمحارم ﴿ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ أى : لمن اتقى الله وخافه .

ربع ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٣٥) ﴾

قال ابن عباس : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يقول : هادى أهل السموات والأرض . قال مجاهد وابن عباس فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : يدبر الأمر فيهما ، نجومهما وشمسهما وقمرهما . وقال أنس بن مالك : إن إلهى يقول : نورى هداى . واختار هذا القول ابن جرير . وقال السدى فى قوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ : فبنوره أضاءت السموات والأرض . وفى الصحيحين عن ابن عباس : كان رسول الله ﷺ إذا قام من الليل يقول : « اللهم لك الحمد، أنت قيِّم السموات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد ، أنت نور السموات والأرض ومن فيهن » الحديث (٢) .

وقوله : ﴿ مَثَلُ نُورِهِ ﴾ : فى هذا الضمير قولان : أحدهما : أنه عائد إلى الله ، عز وجل ، أى : مثل هداه فى قلب المؤمن ، قاله ابن عباس ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ . والثانى : أن الضمير عائد إلى المؤمن الذى دل عليه سياق الكلام : تقديره : مثل نور المؤمن الذى فى قلبه كمشكاة . فشبه قلب المؤمن وما هو مفطور عليه من الهدى ، وما يتلقاه من القرآن المطابق لما هو مفطور عليه ، كما قال تعالى : ﴿ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ ﴾ [هود : ١٧] ، فشبه قلب المؤمن فى صفائه فى نفسه بالقنديل من الزجاج الشفاف الجوهرى ، وما يستهديه من القرآن والشرع بالزيت الجيد الصافى المشرق المعتدل ، الذى لا كدر فيه ولا انحراف .

فقوله : ﴿ كَمِشْكَاةٍ ﴾ : قال ابن عباس وغير واحد : هو موضع الفتيلة من القنديل . هذا هو المشهور ؛ ولهذا قال بعده : ﴿ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾ ، وهو الذُّبالة التى تضىء ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ﴾ أى : هذا الضوء مشرق فى زجاجة صافية . قال أبى بن كعب وغير واحد : وهى نظير قلب المؤمن ﴿ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ من الدر ، أى : كأنها كوكب من دُرّ . قال أبى بن كعب : كوكب مضىء . وقال قتادة: مضىء مبين ضخم . ﴿ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ ﴾ أى: يستمد من زيت زيتون شجرة مباركة ﴿ زَيْتُونَةٍ ﴾ بدل أو عطف بيان ﴿ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ أى : ليست فى شرقى بقعتها فلا تصل إليها الشمس من أول النهار، ولا فى غربيها فيتقلص عنها الفىء قبل الغروب ، بل هى فى مكان وسط ، تَفرعه

(١) ابن ماجه (٢٠٤٣) وصححه الألبانى . (٢) البخارى (١١٢٠) ومسلم (٧٦٩ / ١٩٩) .

الشمس من أول النهار إلى آخره ، فيجيء زيتها معتدلا صافيا مشرقا . وقال ابن عباس في قوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ قال: شجرة بالصحراء ، لا يظلها جبل ولا شجر ولا كهف ، ولا يواريها شيء ، وهو أجود لزيتها . وقال السدي : ليست بشرقية يحوزها المشرق ، ولا غربية يحوزها المغرب دون المشرق ، ولكنها على رأس جبل ، أو في صحراء ، تصيبها الشمس النهارَ كلَّه . وقيل : المراد بقوله : ﴿ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ ﴾ : إنها في وسط الشجر ، وليست بادية للمشرق ولا للمغرب . وأولى هذه الأقوال القولُ الأول ، وهو أنها في مستوى من الأرض ، في مكان فسيح بارز ظاهر ضاح للشمس ، تَفْرعه من أول النهار إلى آخره ، ليكون ذلك أصفى لزيتها وألطف ، كما قال غير واحد ممن تقدم ، ولهذا قال : ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ﴾ . قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعني : لضوء إشراق الزيت .

وقوله : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال ابن عباس: يعني بذلك إيمان العبد وعمله. وقال مجاهد ، والسدي: يعني نور النار ونور الزيت . وقال أبي بن كعب : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ : فهو يتقلب في خمسة من النور ، فكلامه نور ، وعمله نور ، ومدخله نور ، ومخرجه نور ، ومصيره إلى النور يوم القيامة إلى الجنة . وقال السُّدِّي في قوله : ﴿ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ قال : نور النار ونور الزيت ، حين اجتمعا أضاءا ، ولا يضيء واحد بغير صاحبه ، كذلك نور القرآن ونور الإيمان حين اجتمعا ، فلا يكون واحد منهما إلا بصاحبه . ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ أي: يرشد الله إلى هدايته من يختاره ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ : لما ذكر تعالى هذا مثلا لنور هداه في قلب المؤمن ، ختم الآية بقوله : ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ أي : هو أعلم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الإضلال . روى الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله ﷺ : « القلوب أربعة: قلب أجرد فيه مثل السراج يُزهرُ ، وقلب أغلف مربوط على غلافه ، وقلب منكوس ، وقلب مُصفَح: فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن ،سراجه فيه نوره . وأما القلب الأغلف فقلب الكافر . وأما القلب المنكوس فقلب المنافق ، عَرَفَ ثم أنكر . وأما القلب المُصفَح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الإيمان فيه كمثل البقلة يَمُدّها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القُرحة يَمُدها القيح والدم ، فأى المَدتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » . إسناد جيد ولم يخرجوه[1] .

﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝ ﴾

لما ضرب الله تعالى مثل قلب المؤمن ، وما فيه من الهدى والعلم ، بالمصباح في الزجاجة الصافية المتوقّد من زيت طيب ، وذلك كالقنديل ، ذكر محلها وهي المساجد ، التي هي أحب البقاع إلى الله تعالى من الأرض ، وهي بيوته التي يعبد فيها ويُوَحّد ، فقال : ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾

(١) المسند (٣ / ١٧) .

أى : أمر الله تعالى بتعاهدها وتطهيرها من الدنس واللغو ، والأفعال والأقوال التى لا تليق فيها، كما قال ابن عباس فى هذه الآية الكريمة:نهى الله سبحانه عن اللغو فيها. وكذا قال عكرمة ، وأبو صالح، والضحاك ، وغيرهم من علماء المفسرين . وقال قتادة : هى هذه المساجد ، أمر الله ،سبحانه ، ببنائها وعمارتها ورفعها وتطهيرها .

وقد وردت أحاديث كثيرة فى بناء المساجد ، واحترامها وتوقيرها ، وتطييبها وتبخيرها . وذلك له محل مفرد يذكر فيه ، وقد كتبت فى ذلك جزءًا على حدَة ، ولله الحمد والمنة . ونحن بعون الله تعالى نذكر هاهنا طرفا من ذلك ، إن شاء الله تعالى ، وبه الثقة وعليه التكلان :فعن أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، قال : سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «من بنى مسجدا يبتغى به وجه الله، بنى الله له مثله فى الجنة » . أخرجاه فى الصحيحين [١] .

وعن بُرَيْدَةَ أن رَجُلا أنشدَ فى المسجد ، فقال : من دعا إلى الجمل الأحمر ؟ فقال النبى ﷺ : «لا وجدت ، إنما بُنِيت المساجد لما بُنيت له » . رواه مسلم[٢] . وعن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده قال : نهى رسول الله ﷺ عن البيع والابتياع ، وعن تناشد الأشعار فى المساجد . رواه أحمد وأهل السنن ، وقال الترمذى : حسن[٣] . وعن أبى هريرة ، رضى الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال: « إذا رأيتم من يبيع أو يبتاع فى المسجد ، فقولوا : لا أربح الله تجارتك . وإذا رأيتم من يَنشُد ضالة فى المسجد ، فقولوا : لا رَدَّ الله عليك » . رواه الترمذى ، وقال : حسن غريب[٤] .

وأما أنه لا يشهر فيه بسلاح ، ولا ينبض فيه بقوس ، ولا ينثر فيه نبل ، فلما يخشى من إصابة بعض الناس به ، لكثرة المصلين فيه ؛ ولهذا أمر رسول الله ﷺ إذا مر أحد بسهام أن يقبض على نصالها ؛ لئلا يؤذى أحدًا ، كما ثبت فى الصحيح[٥] . وأما أنه لا يتخذ سوقًا ، فلما تقدم من النهى عن البيع والشراء فيه ، فإنه إنما بنى لذكر الله والصلاة كما قال النبى ، عليه الصلاة والسلام،لذلك الأعرابى الذى بال فى طائفة المسجد:« إن المساجد لم تبن لهذا ، إنما بنيت لذكر الله والصلاة فيها » . ثم أمر بسَجْل من ماء ، فأهريق على بوله [٦] .

وروى البخارى عن السائب بن يَزيدَ الكِنْدى قال:كنت قائمًا فى المسجد، فحصبنى رجل ، فنظرت فإذا عمر بن الخطاب ، فقال : اذهب فائتنى بهذين . فجئته بهما ، فقال : من أنتما ؟ أو : من أين أنتما ؟ قالا : من أهل الطائف . قال : لو كنتما من أهل البلد لأوجعتكما . ترفعان أصواتكما فى مسجد رسول الله ﷺ[٧] . وقد ثبت فى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال: « صلاة الرجل فى الجماعة تُضَعَّف على صلاته فى بيته وفى سوقة ،خمسًا وعشرين ضعفًا . وذلك أنه إذا توضأ فأحسن وضوءه ، ثم خرج إلى المسجد ، لا يخرجه إلا الصلاة ، لم يَخطُ خَطوة إلا رُفع له بها درجة ، وحطّ عنه بها خطيئة ، فإذا صَلى لم تزل الملائكة تصلى عليه ما دام فى مُصَلاه : اللهم صل عليه ، اللهم ارحمه ، ولايزال فى صلاة ما انتظر الصلاة » [٨] . وروى مسلم عن أبى حميد ـ أو :

(١) البخارى (٤٥٠) ومسلم (٥٣٣ / ٢٤) .
(٢) مسلم (٥٦٩ / ٨٠) .
(٣) المسند (٦٦٧٦) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٤٤٩) والترمذى (٣٢٢) .
(٤) الترمذى (١٣٢١) وصححه الألبانى .
(٥) مسلم (٢٦١٥ / ١٢٤) .
(٦) مسلم (٢٨٤ / ١٠٠) .
(٧) البخارى (٤٧٠) .
(٨) البخارى (٦٤٧) ومسلم (٦٤٩ / ٢٧٢) .

أبى أُسَيْد ـ قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أحدكم المسجد فليقل: اللهم افتح لى أبواب رحمتك، وإذا خرج فليقل: اللهم إنى أسألك من فضلك ». ورواه النسائى(١). وعن أبى هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: « إذا دخل أحدكم المسجد، فليسلم على النبى ﷺ وليقل: اللهم افتح لى أبواب رحمتك. وإذا خرج فليسلم على النبى ﷺ وليقل: اللهم اعصمنى من الشيطان الرجيم ». ورواه ابن ماجه، وابن خزيمة وابن حبَّان فى صحيحيهما(٢). فهذا الذى ذكرناه، مع ما تركناه من الأحاديث الواردة فى ذلك كله محاذرة الطول داخل فى قوله تعالى: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ ﴾.

وقوله: ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ أى: اسم الله، كقوله: ﴿ يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ ﴾ [الاعراف: ٣١]، وقوله: ﴿ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [الاعراف: ٢٩]، وقوله: ﴿ وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن: ١٨]. قال ابن عباس: ﴿ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ ﴾ يعنى: يتلى فيها كتابه.

وقوله تعالى: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ أى: فى البُكَرات والعَشِيَّات. والآصال: جمع أصيل، وهو آخر النهار. وقال سعيد بن جُبَير، عن ابن عباس: كل تسبيح فى القرآن هو الصلاة. وقال ابن عباس: يعنى بالغدو: صلاة الغداة، ويعنى بالآصال: صلاة العصر، وهما أول ما افترض الله من الصلاة، فأحب أن يَذْكُرهما وأن يُذكِّرَ بهما عباده. وكذا قال الحسن، والضحاك: ﴿ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴾ يعنى: الصلاة. فقوله: ﴿ رِجَالٌ ﴾ فيه إشعار بهممهم السامية، ونياتهم وعزائمهم العالية، التى بها صاروا عُمَّارا للمساجد، التى هى بيوت الله فى أرضه، ومواطن عبادته وشكره، وتوحيده وتنزيهه، كما قال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ ﴾ [الاحزاب: ٢٣].

فأما النساء فَصَلاتهن فى بيوتهن أفضل لهن؛ لما رواه أبو داود، عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ قال: « صلاة المرأة فى بيتها أفضل من صلاتها فى حجرتها، وصلاتها فى مخدعها أفضل من صلاتها فى بيتها »(٣). هذا ويجوز لها شهود جماعة الرجال، بشرط ألا تؤذى أحداً من الرجال بظهور زينة ولا ريح طيب، كما ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عُمَر أنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لا تمنعوا إماء الله مساجد الله ». رواه البخارى ومسلم(٤)، ولأحمد وأبى داود: « بيوتهن خير لهن »(٥)، وفى رواية: « وليخرجن وهن تَفِلات »(٦) أى: لا ريح لهن.

وقد ثبت فى صحيح مسلم، عن زينب ـ امرأة ابن مسعود ـ قالت: قال لنا رسول الله ﷺ: « إذا شهدت إحداكن المسجد فلا تمس طيبًا »(٧). وفى الصحيحين عن عائشة، أنها قالت: كان نساء المؤمنين يشهدن الفجر مع رسول الله ﷺ، ثم يرجعن متلفعات بمُرُوطهن، ما يُعْرَفْن من الغَلَس(٨). وفى الصحيحين أيضًا عنها أنها قالت: لو أدرك رسول الله ﷺ ما أحدث النساء لمنعهُنّ المساجد، كما

---

(١) مسلم (٧١٣ / ٦٨) والنسائى(٧٢٩).
(٢) ابن ماجه (٧٧٣) وابن خزيمة (٤٥٢) وابن حبان (٢٠٤٨ إحسان) وصححه الألبانى.
(٣) أبو داود (٥٧٠) وصححه الألبانى. (٤) البخارى (٩٠٠) ومسلم (٤٤٢ / ١٣٦).
(٥) المسند (٤٥٦٨) وقال الشيخ أحمد شاكر: « إسناده صحيح ».
(٦) المسند (٢ / ٤٣٨) وقال الهيثمى فى المجمع (٢ / ٣٦): « إسناده حسن ».
(٧) مسلم (٤٤٣ / ١٤٢). (٨) البخارى (٥٧٨) ومسلم (٦٤٥ / ٢٣١).

مُنعت نساء بنى إسرائيل (١).

وقوله : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، كقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ الآية [المنافقون : ٩] ، وقوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ﴾ الآية ! الجمعة : ٩] .

يقول تعالى : لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها ومَلاذ بَيعها وربحها ، عن ذكر ربهم الذى هو خالقهم ورازقهم ، والذين يعلمون أن الذى عنده هو خير لهم وأنفع مما بأيديهم ؛ لأن ما عندهم ينفد وما عند الله باق ؛ ولهذا قال : ﴿ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ ﴾ أى: يقدمون طاعته ومُرَاده ومحبته على مرادهم ومحبتهم . عن عبد الله بن عمر ، أنه كان فى السوق فأقيمت الصلاة، فأغلقوا حوانيتهم ودخلوا المسجد ، فقال ابن عمر : فيهم نزلت : ﴿ رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ . وقال عمرو بن دينار الأعور : كنت مع سالم بن عبد الله ونحن نريد المسجد ، فمررنا بسوق المدينة وقد قاموا إلى الصلاة وخمَّروا متاعهم ، فنظر سالم إلى أمتعتهم ليس معها أحد ، فتلا سالم هذه الآية : ﴿رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ ، ثم قال :هم هؤلاء . وقال ابن عباس: ﴿ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ ﴾ يقول : عن الصلاة المكتوبة . وقال السُّدِّى : عن الصلاة فى جماعة .

وقوله : ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ ﴾ أى : يوم القيامة الذى تتقلب فيه القلوب والأبصار ، أى : من شدة الفزع وعظمة الأهوال ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ ﴾ [غافر : ١٨] ، وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ ﴾ [إبراهيم : ٤٢] ، وقال تعالى: ﴿ وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا . إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلا شُكُورًا . إِنَّا نَخَافُ مِنْ رَبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا. فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا . وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان : ٨ ـ ١٢] . وقال هاهنا: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ﴾ أى : هؤلاء من الذين يتقبل عنهم أحسن ما عملوا ويتجاوز عن سيئاتهم .

وقوله : ﴿ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ أى : يتقبل منهم الحسن ويضاعفه لهم ، كما قال تعالى:﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ [النساء: ٤٠] ، وقال تعالى: ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ﴾ [الأنعام : ١٦٠] ، وقال: ﴿ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ﴾ [البقرة : ٢٤٥] ، وقال : ﴿ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٦١] ، كما قال هاهنا : ﴿ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ .

﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ ۝﴾

(١) البخارى (٨٦٩) ومسلم (٤٤٥ / ١٤٤) .

هذان مثلان ضربهما الله تعالى لنوعى الكفار ، فأما الأول من هذين المثلين : فهو للكفار الدعاة إلى كفرهم ، الذين يحسبون أنهم على شيء من الأعمال والاعتقادات ، وليسوا فى نفس الأمر على شيء ، فمثلهم فى ذلك كالسراب الذى يرى فى القيعان من الأرض عن بعد كأنه بحر طام . والقيعة : جمع قاع ، كجار وجيرة . والقاع أيضًا : واحد القيعان ، كما يقال : جار وجيران . وهى : الأرض المستوية المتسعة المنبسطة ، وفيه يكون السراب ، يرى كأنه ماء بين السماء والأرض ، فإذا رأى السراب من هو محتاج إلى الماء ، حسبه ماءً فقصده ليشرب منه ، فلما انتهى إليه ﴿ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا ﴾ ، فكذلك الكافر يحسب أنه قد عمل عملاً ، وأنه قد حَصَّل شيئًا ، فإذا وافى الله يوم القيامة وحاسبه عليها ، ونوقش على أفعاله ، لم يجد له شيئًا بالكلية قد قُبل ، إما لعدم الإخلاص ، وإما لعدم سلوك الشرع ، كما قال تعالى : ﴿ وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان : ٢٣] . وقال هاهنا : ﴿ وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ . وهكذا رُوى عن أُبى بن كعب ، وابن عباس ، ومجاهد ، وقتادة وغير واحد . وفى الصحيحين : أنه يقال يوم القيامة لليهود : ما كنتم تعبدون ؟ فيقولون : كنا نعبد عُزَيْر ابن الله . فيقال : كذبتم ، ما اتخذ الله من ولد ، ماذا تبغون ؟ فيقولون : أى ربَّنا ، عَطشنا فاسقنا. فيقال : ألا ترون ؟ فتمثل لهم النار كأنها سراب يحطم بعضها بعضًا ، فينطلقون فيتهافتون فيها (١) .

وهذا المثال مثال لذوى الجهل المركب . فأما أصحاب الجهل البسيط ، وهم الأغشام المقلدون لأئمة الكفر ، الصم البكم الذين لا يعقلون ، فمثلهم كما قال تعالى : ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ ﴾ قال قتادة : وهو العميق ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا ﴾ أى : لم يقارب رؤيتها من شدة الظلام ، فهذا مثل قلب الكافر الجاهل البسيط المقلد الذى لا يدرى أين يذهب ، ولا يعرف حال من يقوده ، بل كما يقال فى المثل للجاهل : أين تذهب ؟ قال : معهم . قيل : فإلى أين يذهبون ؟ قال : لا أدرى . وقال ابن عباس: ﴿ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ﴾ : يعنى بذلك : الغشاوة التى على القلب والسمع والبصر ، وهى كقوله : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [البقرة : ٧] ، وكقوله: ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الجاثية : ٢٣] . وقال أُبىّ بن كعب فى قوله: ﴿ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾ : فهو يتقلب فى خمسة من الظلم : كلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره يوم القيامة إلى الظلمات ، إلى النار . وقال الربيع بن أنس ، والسُّدِّى نحو ذلك أيضًا .

وقوله : ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ أى : من لم يهده الله فهو هالك جاهل حائر بائر كافر ، كما قال تعالى : ﴿ مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ ﴾ [الأعراف : ١٨٦] ، وهذا فى مُقابلة ما قال فى مثل المؤمنين : ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ : فنسأل الله العظيم أن يجعل فى قلوبنا نوراً ، وعن أيماننا نوراً ، وعن شمائلنا نوراً ، وأن يعظم لنا نورا .

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ

(١) البخارى (٤٥٨١) ومسلم (١٨٣ / ٢ - ٣٠٢) .

عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤١﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٢﴾

يخبر تعالى أنه يسبح له من فى السموات والأرض ، أى : من الملائكة والأناسى ، والجان والحيوان، حتى الجماد، كما قال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ﴾ الآية [الإسراء: ٤٤] . وقوله : ﴿ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ﴾ اى : فى حال طيرانها تسبح ربها وتعبده بتسبيح ألهمها وأرشدها إليه، وهو يعلم ما هى فاعلة ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ﴾ أى : كل قد أرشده إلى طريقته ومسلكه فى عبادة الله ، عز وجل . ثم أخبر أنه عالم بجميع ذلك ، لا يخفى عليه من ذلك شىء؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴾ .

ثم أخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض ، فهو الحاكم المتصرف الذى لا معقب لحكمه ،وهو الإله المعبود الذى لا تنبغى العبادة إلا له ﴿ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴾ أى : يوم القيامة ، فيحكم فيه بما يشاء ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١] ، فهو الخالق المالك ، الا له الحكم فى الدنيا والآخرى ، وله الحمد فى الأولى والآخرة ؟ !

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ ﴾

يذكر تعالى أنه يسوق السحاب بقدرته أول ما ينشئها وهى ضعيفة ، وهو الإزجاء ﴿ ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ﴾ أى : يجمعه بعد تفرُّقه ﴿ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا ﴾ اى : متراكمًا ، أى : يركب بعضه بعضًا ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ ﴾ أى المطر ﴿ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ اى : من خَلَله . وكذا قرأها ابن عباس والضحاك.

وقوله : ﴿ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ : قال بعض النحاة : « من » الأولى لابتداء الغاية، والثانية للتبعيض ، والثالثة لبيان الجنس . وهذا إنما يجىء على قول من ذهب من المفسرين إلى أن قوله : ﴿ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِن بَرَدٍ ﴾ معناه : أن فى السماء جبالَ بَرَدٍ ينزل الله منها البرد. وأما من جعل الجبال هاهنا كناية عن السحاب ، فإن « من » الثانية عند هذا لابتداء الغاية أيضًا ، لكنها بَدَل من الأولى، والله أعلم. وقوله: ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ : يحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أى : بما ينزل من السماء من نوعى البرد والمطر ، فيكون قوله : ﴿ فَيُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ رحمة لهم ، ﴿ وَيَصْرِفُهُ عَن مَّن يَشَاءُ ﴾ اى : يؤخر عنهم الغيث . ويحتمل أن يكون المراد بقوله : ﴿فَيُصِيبُ بِهِ﴾ أى : بالبرد نقمة على من يشاء لما فيه من نثر ثمارهم وإتلاف زروعهم وأشجارهم . ويصرفه عمن يشاء رحمة بهم . وقوله : ﴿ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ ﴾ أى : يكاد ضوء برقه من شدته يخطف الأبصار إذا اتبعته وتراءته .

وقوله : ﴿ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴾ أى : يتصرف فيهما ، فيأخذ من طول هذا فى قصر هذا حتى يعتدلا ،ثم يأخذ من هذا فى هذا، فيطول الذى كان قصيرًا، ويقصر الذى كان طويلا . والله هو المتصرف فى ذلك بأمره وقهره وعزته وعلمه ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ اى: لدليلاً على عظمته تعالى ، كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ [آل عمران: ١٩٠]،

وما بعدها من الآيات الكريمات .

﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤٥) ﴾

يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم ، فى خلقه أنواع المخلوقات ، على اختلاف أشكالها وألوانها ، وحركاتها وسكناتها ، من ماء واحد ، ﴿ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ ﴾ كالحية وما شاكلها ﴿وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ ﴾ كالإنسان والطير ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ ﴾ كالأنعام وسائر الحيوانات ؛ ولهذا قال: ﴿ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أى : بقدرته ؛ لأنه ما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

﴿ لَّقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٤٦) ﴾

يقرر تعالى أنه أنزل فى هذا القرآن من الحِكَم والحُكْم والأمثال البينة المحكمة،كثيرًا جدًا ، وأنه يرشد إلى تفهمها وتعقلها أولى الألباب والبصائر والنهى ؛ ولهذا قال : ﴿ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

﴿ وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ (٤٨) وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ (٤٩) أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٥٠) إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٥١) وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٥٢) ﴾

يخبر تعالى عن صفات المنافقين ، الذين يظهرون خلاف ما يبطنون ، يقولون قولا بألسنتهم : ﴿آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ﴾ أى : يخالفون أقوالهم بأعمالهم ، فيقولون ما لا يفعلون ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

وقوله تعالى : ﴿ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ﴾ الآية ، أى : إذا طلبوا إلى اتباع الهدى ، فيما أنزل الله على رسوله ، أعرضوا عنه واستكبروا فى أنفسهم عن اتباعه . وهذه كقوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ﴾ إلى قوله: ﴿ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠ ، ٦١]. وقوله: ﴿ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ أى: إذا كانت الحكومة لهم لا عليهم، جاؤوا سامعين مطيعين وهو معنى قوله : ﴿ مُذْعِنِينَ ﴾ ، وإذا كانت الحكومة عليه أعرض ودعا إلى غير الحق، وأحب أن يتحاكم إلى غير النبى ﷺ ليروج باطله ثَمّ . فإذعانه أولاً لم يكن عن اعتقاد منه أن ذلك هو الحق ، بل لأنه موافق لهواه ؛ ولهذا لما خالف الحقّ قصده ، عدل عنه إلى غيره ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ﴾ يعنى : لا يخرج أمرهم عن أن

يكون فى القلوب مَرَض لازم لها ، أو قد عرض لها شك فى الدين ، أو يخافون أن يجور الله ورسوله عليهم فى الحكم . وأيا مّا كان فهو كفر محض ، والله عليم بكل منهم ، وما هو عليه منطو من هذه الصفات . وقوله : ﴿ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ أى : بل هم الظالمون الفاجرون ، والله ورسوله مبرآن مما يظنون ويتوهمون من الحيف والجور ، تعالى الله ورسوله عن ذلك .

ثم أخبر تعالى عن صفة المؤمنين المستجيبين لله ولرسوله ، الذين لا يبغون دينا سوى كتاب الله وسنة رسوله، فقال: ﴿ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ﴾ اى : سمعًا وطاعة ؛ ولهذا وصفهم تعالى بالفلاح ، وهو نيل المطلوب والسلامة من المرهوب ، فقال : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ . والأحاديث والآثار فى وجوب الطاعة لكتاب الله وسنة رسوله ، وللخلفاء الراشدين ، والأئمة إذا أمروا بطاعة الله أكثر من أن تحصر فى هذا المكان .

وقوله : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ ﴾ قال قتادة : يطع الله ورسوله فيما أمراه به وترك ما نهياه عنه ﴿وَيَخْشَ اللهَ﴾ فيما مضى من ذنوبه ﴿ وَيَتَّقْهِ ﴾ فيما يستقبل . وقوله : ﴿ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ يعنى : الذين فازوا بكل خير ، وأمنُوا من كل شر فى الدنيا والآخرة .

ربع

﴿ ۞ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتَهُمْ لَيَخْرُجُنَّ قُل لَّا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَّعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٣﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى مخبرا عن أهل النفاق ، الذين كانوا يحلفون للرسول ﷺ : لئن أمرتم بالخروج فى الغزو ليخرجن ، قال الله تعالى : ﴿ قُل لا تُقْسِمُوا ﴾ أى: لا تحلفوا . وقوله : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ قيل : معناه : طاعتكم طاعة معروفة ، أى : قد عُلم طاعتكم، إنما هى قول لا فعل معه ، وكلما حلفتم كذبتم ، كما قال تعالى : ﴿ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِن تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَىٰ عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ ﴾ [التوبة :٩٦]، وقال تعالى: ﴿ اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [المنافقون:٢] ، فهم من سجيتهم الكذب حتى فيما يختارونه ، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ وَاللهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ . لَئِنْ أُخْرِجُوا لا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا لا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لا يُنصَرُونَ﴾ [الحشر : ١١ ، ١٢]. وقيل : المعنى فى قوله : ﴿ طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ ﴾ أى : ليكن أمركم طاعة معروفة ، أى : بالمعروف من غير حَلف ولا إقسام ، كما يطيع الله ورسوله المؤمنون بغير حلف ، فكونوا أنتم مثلهم . ﴿ إِنَّ اللهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ اى : هو خبير بكم وبمن يطيع ممن يعصى ،فالحلف وإظهار الطاعة ـ والباطن بخلافه ، وإن راج على المخلوق ـ فالخالق ، تعالى ، يعلم السر وأخفى ، لا يروج عليه شىء من التدليس ، بل هو خبير بضمائر عباده ، وإن أظهروا خلافها .

ثم قال تعالى: ﴿ قُلْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ أى : اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أى: تتولوا عنه وتتركوا ما جاءكم به ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ ﴾ أى : إبلاغ الرسالة وأداء الأمانة ﴿وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ ﴾ أى : من ذلك وتعظيمه والقيام بمقتضاه ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ وذلك لأنه يدعو إلى صراط

مستقيم ﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ أَلا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الأُمُورُ ﴾ [الشورى : ٥٣] . وقوله : ﴿ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلا الْبَلاغُ الْمُبِينُ ﴾ كقولـه : ﴿ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴾ [الرعد : ٤٠] ، وقولـه : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية : ٢١ ، ٢٢] .

﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾

هذا وعد من الله لرسوله ﷺ ، بأنه سيجعل أمته خلفاء الأرض ، أى : أئمةَ الناس والولاةَ عليهم ، وبهم تصلح البلاد ، وتخضع لهم العباد ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا وحكما فيهم ، وقد فعله تبارك وتعالى، وله الحمد والمنة ، فإنه ﷺ لم يمت حتى فتح الله عليه مكة وخيبر والبحرين، وسائر جزيرة العرب وأرض اليمن بكمالها. وأخذ الجزية من مَجُوس هَجَر،ومن بعض أطراف الشام ، وهاداه هرقل ملك الروم وصاحب مصر والإسكندرية ـ وهو المقوقس ـ وملوك عمان والنجاشى ملك الحبشة ،الذى تَملَّك بعد أصْحَمة ،رحمه الله وأكرمه .ثم لما مات رسول الله ﷺ واختار الله له ما عنده من الكرامة ، قام بالأمر بعده خليفته أبوبكر الصديق ، فَلَمّ شَعَث ما وَهَى عند موته ، عليه الصلاة والسلام ، وأطَّدَ جزيرة العرب ومهدها ، وبعث الجيوش الإسلامية إلى بلاد فارس صحبة خالد ابن الوليد ، رضى الله عنه ، ففتحوا طرفا منها ، وقتلوا خلقا من أهلها . وجيشا آخر صحبة أبى عبيدة، رضى الله عنه ، ومن معه من الامراء إلى أرض الشام ، وثالثًا صحبة عمرو بن العاص ، رضى الله عنه ، إلى بلاد مصر ، ففتح الله للجيش الشامى فى أيامه بُصرَى ودمشق ومَخَاليفهما من بلاد حَوران وما والاها ، وتوفاه الله ، عزوجل ، واختار له ما عنده من الكرامة . ومَنّ على الإسلام وأهله بأن ألهم الصديق أن استخلف عمر الفاروق ، فقام فى الأمر بعده قياما تاما ، لم يَدُر الفلك بعد الأنبياء عليهم السلام على مثله،فى قوة سيرته وكمال عدله . وتم فى أيامه فتح البلاد الشامية بكمالها ، وديار مصر إلى آخرها، وأكثر إقليم فارس ، وكَسَّر كسرى وأهانه غاية الهوان ، وتقهقر إلى أقصى مملكته،وقَصَّر قيصر ،وانتزع يده عن بلاد الشام فانحاز إلى قسطنطينة ، وأنفق أموالهما فى سبيل الله ، كما أخبر بذلك ووعد به رسول الله ، عليه من ربه أتم سلام وأزكى صلاة .

ثم لما كانت الدولة العثمانية ، امتدت المماليك الإسلامية إلى أقصى مشارق الارض ومغاربها ، ففتحت بلاد المغرب إلى أقصى ما هنالك : الأندلس ، وقبرص ، وبلاد القيروان ، وبلاد سَبْتَة مما يلى البحر المحيط ، ومن ناحية المشرق إلى أقصى بلاد الصين ، وقتل كسرى ، وباد ملكه بالكلية . وفتحت مدائن العراق،وخراسان ، والأهواز ، وقتل المسلمون من الترك مقتلة عظيمة جدا ، وخذل الله ملكهم الاعظم خاقان ، وجُبى الخراج من المشارق والمغارب إلى حضرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان ، رضى الله عنه . وذلك ببركة تلاوته ودراسته وجمعه الأمة على حفظ القرآن ؛ ولهذا ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن الله زَوَى لى الارض ، فرأيت مشارقها ومغاربها،وسيبلغ ملك أمتى ما زُوِى لى منها » [1] . فها نحن نتقلب فيما وعدنا الله ورسوله ،وصدق الله ورسوله ، فنسأل الله

(١) مسلم (٢٨٨٩ / ١٩) .

الإيمان به ، وبرسوله ، والقيام بشكره على الوجه الذى يرضيه عنا .

روى الإمام مسلم عن جابر بن سَمُرَة قال : سمعتُ رسولَ الله ﷺ يقول : « لا يزال أمر الناس ماضيا ما وليهم اثنا عشر رجلا » . ثم تكلم النبى ﷺ بكلمة خفيت عنى فسألت أبى : ماذا قال رسول الله ﷺ ؟ فقال: «كلهم من قريش » . ورواه البخارى (١) . وهذا الحديث فيه دلالة على أنه لابد من وجود اثنى عشرَ خليفة عادلا ، وليسوا هم بأئمة الشيعة الاثنى عشر فإن كثيرا من أولئك لم يكن إليهم من الأمر شىء؛ فأما هؤلاء فإنهم يكونون من قريش ، يَلُون فيعدلون . وقد وقعت البشارة بهم فى الكتب المتقدمة ، ثم لا يشترط أن يكونوا متتابعين ، بل يكون وجودهم فى الأمة متتابعا ومتفرقا، وقد وُجد منهم أربعة على الولاء ، وهم : أبوبكر ، ثم عمر ، ثم عثمان ، ثم على ، رضى الله عنهم . ثم كانت بعدهم فترة ، ثم وُجد منهم ما شاء الله ، ثم قد يُوجَد منهم مَن بقى فى وقت يعلمه الله. ومنهم المهدى الذى يطابق اسمه اسم رسول الله ﷺ ، وكنيته كنيته ، يملأ الأرض عدلا وقسطا ، كما ملئت جورًا وظلما .

وهذه الآية الكريمة كقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الانفال : ٢٦] .

وقوله : ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم﴾ كما قال تعالى عن موسى، عليه السلام ، أنه قال لقومه : ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الاعراف : ١٢٩] ، وقال تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ . وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص : ٥ ، ٦] . وقوله: ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ﴾ الآية ، كما قال رسول الله ﷺ لعدىّ بن حاتم ، حين وفد عليه : « أتعرف الحيرة ؟ » قال : لم أعرفها ، ولكن قد سمعت بها . قال : « فوالذى نفسى بيده ، ليُتمّن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولتفتحن كنوز كسرى بن هرمز » . قلت : كسرى بن هرمز ؟ قال: « نعم ، كسرى بن هرمز ، وليُبذلَنّ المالُ حتى لا يقبله أحد » . قال عدى ابن حاتم : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت فى غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، والذى نفسى بيده ، لتكونن الثالثة ؛ لأن رسول الله ﷺ قد قالها (٢) .

وقوله: ﴿يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ روى الإمام أحمد عن أنس ،أن معاذ بن جبل حدثه قال : بينا أنا رديف رسول الله ﷺ ليس بينى وبينه إلا آخرة الرَّحْل ، قال : « يا معاذ » ، قلت : لبيك يا رسول الله وسَعْديك .قال : ثم سار ساعة ثم قال : « يا معاذ بن جبل » ،قلت:لبيك يا رسول الله وسعديك. ثم سار ساعة ، ثم قال: « يا معاذ بن جبل » ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك » . قال: « هل تدرى ما حق الله على العباد » ، قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا » . قال : ثم سار ساعة . ثم قال : «يا معاذ بن جبل » ، قلت: لبيك يا رسول الله وسعديك . قال : « فهل تدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟» ، قال : قلت: الله ورسوله أعلم ـ قال: « فإن حق العباد على الله ألا يعذبهم » .

(١) البخارى (٧٢٢٢) ومسلم (١٨٢١ / ٦) . (٢) البخارى (٣٥٩٥) .

اخرجاه فى الصحيحين (١)

وقوله : ﴿ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ أى : فمن خرج عن طاعتى بعد ذلك ، فقد فَسَقَ عن أمر ربه وكفى بذلك ذنبًا عظيما . فالصحابة ، رضى الله عنهم ، لما كانوا أقوم الناس بعد النبى ﷺ بأوامر الله ، عز وجل ، وأطوعهم لله ـ كان نصرهم بحسبهم ، وأظهروا كلمة الله فى المشارق والمغارب ، وأيدهم تأييدًا عظيما ، وتحكموا فى سائر العباد والبلاد . ولما قَصَّر الناس بعدهم فى بعض الأوامر ، نقص ظهورهم بحسبهم ، ولكن قد ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى يوم القيامة » (٢).

﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ ۖ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ ﴾

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين بإقام الصلاة ،وهى عبادة الله وحده لا شريك له ، وإيتاء الزكاة ، وهى : الإحسان إلى المخلوقين ضعفائهم وفقرائهم ، وأن يكونوا فى ذلك مطيعين لرسول الله ﷺ ، أى : سالكين وراءه فيما به أمرهم ، وتاركين ما عنه زجرهم ، لعل الله يرحمهم بذلك . ولا شك أن من فعل ذلك أن الله سيرحمهم ، كما قال تعالى فى الآية الاخرى : ﴿أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ﴾ [التوبة : ٧١] . وقوله : ﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ﴾ ، أى : لا تظن يا محمد ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى : خالفوك وكذبوك ﴿ مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ ﴾ أى : لا يعجزون الله ، بل الله قادر عليهم ، وسيعذبهم على ذلك أشد العذاب ؛ ولهذا قال : ﴿ وَمَأْوَاهُمُ ﴾ أى : فى الدار الآخرة ﴿ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل مآلُ الكافرين ، وبئس القرار وبئس المهاد .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَأْذِنكُمُ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ وَمِن بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ۚ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ۚ طَوَّافُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ۖ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ ﴾

هذه الآيات الكريمة اشتملت على استئذان الأقارب بعضهم على بعض . وما تقدم فى أول السورة فهو استئذان الأجانب بعضهم على بعض . فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدَمُهم مما ملكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم فى ثلاثة أحوال: الأول من قبل صلاة الغداة ؛ لأن الناس

(١) المسند (٥ / ٢٤٢) والبخارى (٥٩٦٧) ومسلم (٣٠ / ٤٨) .
(٢) البخارى (٧٣١١) ومسلم (١٩٢٠ / ١٧٠) .

إذ ذاك يكونون نيامًا فى فرشهم ، ﴿ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ الظَّهِيرَةِ ﴾ أى : فى وقت القيلولة؛ لأن الإنسان قد يضع ثيابه فى تلك الحال مع أهله ، ﴿ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ﴾ ؛ لأنه وقت النوم ، فيُؤمَرُ الخدمُ والأطفال ألا يهجمُوا على أهل البيت فى هذه الأحوال ، لما يخشى أن يكون الرجل على أهله ، أو نحو ذلك من الأعمال ؛ ولهذا قال : ﴿ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ﴾ أى : إذا دخلوا فى حال غير هذه الأحوال فلا جناح عليكم فى تمكينكم إياهم من ذلك، ولا عليهم إن رأوا شيئا فى غير تلك الأحوال ؛ لأنه قد أذن لهم فى الهجوم ، ولأنهم ﴿ طَوَّٰفُونَ ﴾ عليكم، أى : فى الخدمة وغير ذلك، ويغتفر فى الطوافين ما لا يغتفر فى غيرهم ؛ ولهذا رَوَى الإمام مالك وأحمد بن حنبل وأهل السنن أن رسول الله ﷺ قال فى الهرَّة : « إنها ليست بنجَس ؛ إنها من الطوافين عليكم ـ أو ـ والطوافات»(١).

ولما كانت هذه الآية محكمة ولم تنسخ بشىء ، وكان عمل الناس بها قليلا جدًا ، أنكر عبد الله ابن عباس ذلك على الناس ، [فعن] سعيد بن جُبَيْر قال : قال ابن عباس : ترك الناس ثلاث آيات فلم يعملوا بهن : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ ﴾ إلى آخر الآية ، والآية التى فى سورة النساء: ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُو۟لُوا۟ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ [النساء : ٨] ، والآية التى فى الحجرات : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات: ١٣] . وقال السُّدِّىّ : كان أناس من الصحابة ، رضى الله عنهم ، يحبون أن يُواقعوا نساءهم فى هذه الساعات ليغتسلوا ثم يخرجوا إلى الصلاة ، فأمرهم الله أن يأمروا المملوكين والغلمان ألا يدخلوا عليهم فى تلك الساعات إلا بإذن .

ومما يدل على أنها محكمة لم تنسخ ، قوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ .

ثم قال تعالى : ﴿ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : إذا بلغ الأطفال الذين إنما كانوا يستأذنون فى العورات الثلاث ، إذا بلغوا الحلم ، وجب عليهم أن يستأذنوا على كل حال ، يعنى بالنسبة إلى أجانبهم وإلى الأحوال التى يكون الرجل على امرأته ، وإن لم يكن فى الأحوال الثلاث . قال يحيى بن أبى كثير: إذا كان الغلام رياعيا فإنه يستأذن فى العورات الثلاث على أبويه ، فإذا بلغ الحلم فليستأذن على كل حال. وهكذا قال سعيد بن جبير. وقال فى قوله : ﴿ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ يعنى : كما استأذن الكبار من ولد الرجل وأقاربه.

وقوله : ﴿ وَٱلْقَوَٰعِدُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾ : قال سعيد بن جُبَيْر ، ومُقَاتِل بن حيَّان ، وقتادة ، والضحاك: هن اللواتى انقطع عنهن الحيض ويئسن من الولد ﴿ ٱلَّٰتِى لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴾ أى : لم يبق لهن تَشَوُّف إلى التزويج ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ أى : ليس عليها من الحرج فى الستر كما على غيرها من النساء . قال ابن مسعود فى قوله : ﴿ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴾ قال : الجلباب ، أو الرداء ، وكذا رُوى عن ابن عباس ، وابن عمر ، ومجاهد ، وغيرهم . وقال سعيد بن جبير : ﴿ غَيْرَ مُتَبَرِّجَٰتٍۭ بِزِينَةٍ ﴾ يقول: لا يتبرجن بوضع الجلباب ، أن يرى ما عليها من الزينة. وقوله : ﴿ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَّهُنَّ ﴾ أى : وترك وضعهن لثيابهن ـ وإن كان جائزًا ـ خير وأفضل لهن ، والله سميع عليم.

(١) الموطأ (١ / ٢٣) والمسند (٥ / ٢٩٦) والترمذى (٩٢) وصححه الألبانى .

﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٦١﴾﴾

اختلف المفسرون ـ رحمهم الله ـ فى المعنى الذى رفع من أجله الحرج عن الأعمى والأعرج والمريض هاهنا ، فقال عطاء الخراسانى ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم : نزلت فى الجهاد . وجعلوا هذه الآية هاهنا كالتى فى سورة الفتح . وتلك فى الجهاد لا محالة ، أى : أنهم لا إثم عليهم فى ترك الجهاد ؛ لضعفهم وعجزهم ، وكما قال تعالى فى سورة براءة : ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ . وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ﴾ [التوبة: ٩١، ٩٢]. وقيل : المراد هاهنا أنهم كانوا يتحرجون من الأكل مع الأعمى ؛ لأنه لا يرى الطعام وما فيه من الطيبات، فربما سبقه غيره إلى ذلك. ولا مع الأعرج ؛ لأنه لا يتمكن من الجلوس ، فيفتات عليه جليسُه . والمريض لا يستوفى من الطعام كغيره ، فكرهوا أن يؤاكلوهم لئلا يظلموهم ، فأنزل الله هذه الآية رخصة فى ذلك . وهذا قول سعيد بن جبير ، ومقسم . وقال الضحاك : كانوا قبل المبعث يتحرجون من الأكل مع هؤلاء تقذرًا وتقززًا ، ولئلا يتفضلوا عليهم ، فأنزل الله هذه الآية .

وقال السُّدّى : كان الرجل يدخل بيت أبيه ، أو أخيه أو ابنه ، فتُحفه المرأة بالشىء من الطعام ، فلا يأكل من أجل أن رَبّ البيت ليس ثَمّ . فقال الله تعالى : ﴿لَّيْسَ عَلَى الْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ إلى قوله : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا﴾ .

وقوله تعالى : ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَن تَأْكُلُوا مِن بُيُوتِكُمْ﴾ إنما ذكر هذا ـ وهو معلوم ـ ليعطفَ عليه غيره فى اللفظ ، وليساويه ما بعده فى الحكم . وتضمن هذا بيوت الأبناء ؛ لأنه لم ينص عليهم . ولهذا استدل بهذا من ذهب إلى أن مال الولد بمنزلة مال أبيه ، وقد جاء فى المسند والسنن ، من غير وجه ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « أنت ومالك لأبيك »[1].

وقوله : ﴿أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ ، إلى قوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ ، هذا ظاهر. وقد يستدل به من يوجب نفقة الأقارب بعضهم على بعض ، كما هو مذهب أبى حنيفة والإمام أحمد ابن حنبل ، فى المشهور عنهما .

وأما قوله : ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ : فقال سعيد بن جُبَير ، والسُّدّى : هو خادم الرجل من عبد وقَهْرَمان ، فلا بأس أن يأكل مما استودعه من الطعام بالمعروف . وعن عائشة قالت : كان المسلمون

(١) المسند (٦٦٧٨) وقال الشيخ أحمد شاكر : « إسناده صحيح » وأبو داود (٣٥٣٠) وابن ماجه (٢٢٩٢) .

يرغبون فى النفير مع رسول الله ﷺ ، فيدفعون مفاتحهم إلى ضُمَّنَانهم ، ويقولون : قد أحللنا لكم أن تأكلوا ما احتجتم إليه . فكانوا يقولون : إنه لا يحل لنا أن نأكل ؛ إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم ، وإنما نحن أمناء . فأنزل الله : ﴿ أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ ﴾ . وقوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ أى : بيوت أصدقائكم وأصحابكم ، فلا جناح عليكم فى الأكل منها، إذا علمتم أن ذلك لا يَشُق عليهم ولا يكرهون ذلك . وقال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل بغير إذنه .

وقوله : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ قال ابن عباس فى هذه الآية: وذلك لما أنزل الله: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ ﴾ [النساء : ٢٩] ، قال المسلمون : إن الله قد نهانا أن نأكل أموالنا بيننا بالباطل ، والطعام هو أفضل من الأموال، فلا يحل لأحد منا أن يأكل عند أحد . فكف الناسُ عن ذلك ، فأنزل الله : ﴿ لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ ﴾ إلى قوله : ﴿ أَوْ صَدِيقِكُمْ ﴾ . وكانوا أيضًا يأنفون ويتحرجون أن يأكل الرجل الطعام وحده ، حتى يكون معه غيره ، فرخص الله لهم فى ذلك ، فقال : ﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا ﴾ . فهذه رخصة من الله تعالى فى أن يأكل الرجل وحده ، ومع الجماعة ،وإن كان الأكل مع الجماعة أفضل وأبرك ،كما رواه الإمام أحمد عن وَحْشىِّ بن حَرْب ، عن أبيه،عن جده ؛ أنّ رجلا قال للنبىّ ﷺ : إنا نأكلُ ولا نشبَع . قال: « فلعلكم تأكلون متفرقين ، اجتمعوا على طعامكم ، واذكروا اسم الله يُبَارِكْ لكم فيه »(١).

وقوله : ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ ﴾ قال سعيد بن جبير ، والحسن البصرى : فليسلم بعضكم على بعض . وقال جابر بن عبد الله : إذا دخلتَ على أهلك ، فسلمّ عليهم تحية من عند الله مباركة طيبة .وقال مجاهد : إذا دخلت المسجد فقل : السلام على رسول الله . وإذا دخلت على أهلك فسلم عليهم ، وإذا دخلت بيتًا ليس فيه أحد فقل : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين .

وقوله : ﴿ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ عن ابن عباس أنه كان يقول : ما أخذت التشهدَ إلا من كتاب الله،سمعت الله يقول: ﴿ فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً ﴾ . وقوله : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ : لما ذكر تعالى ما فى هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة والشرائع المتقنة المبرمة ، نبَّه تعالى على أنه يُبيِّن لعباده الآيات بيانًا شافيًا ، ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون .

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ فَإِذَا ٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمُ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٢﴾﴾

وهذا أيضًا أدب أرشد الله عبادَه المؤمنين إليه ، فكما أمرهم بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ـ لا سيما إذا كانوا فى أمر جامع مع الرسول ﷺ من صلاة جمعة أو عيد أو جماعة ، أو اجتماع فى مشورة ونحو ذلك ـ أمرهم الله تعالى الا يتفرقوا عنه والحالة هذه إلا بعد استئذانه ومشاورته . وإن من يفعل ذلك فإنه من المؤمنين الكاملين .ثم أمر رسوله ﷺ إذا استأذنه

(١) المسند (٣ / ٥٠١) وأبو داود (٣٧٦٤) وابن ماجه (٣٢٨٦) وصححه الألبانى .

أحد منهم فى ذلك أن يأذن له، إن شاء؛ ولهذا قال: ﴿ فَأْذَن لِّمَن شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ ﴾ الآية . وقد روى أبو داود عن أبى هريرة ، قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا انتهى أحدكم إلى المجلس فليسلِّم، فإذا أراد أن يقوم فليسلِّم ، فليست الأولى بأحق من الآخرة » . وهكذا رواه الترمذى والنسائى ، وقال الترمذى : حسن[1].

﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ۚ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦٣﴾ ﴾

قال ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل، عن ذلك ، إعظاماً لنبيه ﷺ . قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبى الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جُبَير . وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه ﷺ ، وأن يُبَجَّل وأن يعظم وأن يسود . هذا قول . وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا ﴾ [البقرة : ١٠٤] ، وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ إلى قوله : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ﴾ [الحجرات : ٢ ـ ٥] . فهذا كله من باب الأدب فى مخاطبة النبى ﷺ والكلام معه وعنده كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته . والقول الثانى فى ذلك : أن المعنى: لا تعتقدوا أن دعاءه على غيره كدعاء غيره ، فإن دعاءه مستجاب ، فاحذروا أن يدعو عليكم فتهلكوا . حكاه ابن أبى حاتم ، عن ابن عباس ، والحسن البصرى ، وعطية العَوفى ، والله أعلم .

وقوله: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ قال مقاتل بن حيَّان : هم المنافقون ، كان يثقل عليهم الحديث فى يوم الجمعة ـ ويعنى بالحديث الخطبة ـ فيلوذون ببعض أصحاب محمد ﷺ حتى يخرجوا من المسجد ، وكان لا يصلح للرجل أن يخرج من المسجد إلا بإذن من النبىّ ﷺ فى يوم الجمعة، بعدما يأخذ فى الخطبة ، وكان إذا أراد أحدهم الخروجَ أشارَ بإصبعه إلى النبى ﷺ ، فيأذن له من غير أن يتكلم الرجل ؛ لأن الرجل منهم كان إذا تكلم والنبى ﷺ يخطب ، بطلتْ جُمعته . قال السُّدِّى: كانوا إذا كانوا معه فى جماعة ، لاذ بعضهم ببعض ، حتى يتغيبوا عنه ، فلا يراهم. وقال قتادة فى قوله : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ يعنى : لواذا عن نبى الله وعن كتابه . وقال سفيان : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ قال: من الصف . وقال مجاهد فى الآية : ﴿لِوَاذًا ﴾ : خلافًا.

وقوله : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ ﴾ أى : عن أمر رسول الله ﷺ ، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وشريعته فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله ، فما وافق ذلك قُبِل ، وما خالفه فهو مَرْدُود على قائله وفاعله ، كائنا ما كان ، كما ثبت فى الصحيحين وغيرهما ، عن رسول الله ﷺ أنه قال : « من عمل عَمَلاً ليس عليه أمرنا فهو رَدّ »[2]. أى: فليحذر وليخْشَ من خالف شريعة الرسول باطنًا أو ظاهرًا ﴿ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ ﴾ أى: فى قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة ، ﴿ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾

---

(١) أبو داود (٥٢٠٨) والترمذى (٢٧٠٦) والنسائى فى الكبرى (١٠٢٠١) وصححه الألبانى .
(٢) البخارى (٢٦٩٧) ومسلم (١٧١٨ / ١٧) .

أى: فى الدنيا ، بقتل ، أو حَد ، أو حبس ، أو نحو ذلك . روى الإمام أحمد عن أبى هُرَيرة قال : قال رسول الله ﷺ : « مثلى ومثلكم كمثل رجل استوقد ناراً ، فلما أضاءت ما حولها ، جعل الفراش وهذه الدواب اللاتى يقعن فى النار يقعن فيها،وجعل يحجزهن ويغلبنه ويتقحَّمن فيها »: قال : « فذلك مثلى ومثلكم ، أنا آخذ بحجزكم عن النار هلم عن النار ، فتغلبونى وتقتحمون فيها » . أخرجاه (١).

﴿أَلَآ إِنَّ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ قَدْ يَعْلَمُ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ ۖ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾

يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ، وأنه عالم الغيب والشهادة ، وهو عالم بما العباد عاملون فى سرهم وجهرهم،فقال: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ و « قد » للتحقيق ، كما قال قبلها: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ﴾ ، وقال تعالى : ﴿ قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الاحزاب : ١٨] . وقال تعالى : ﴿ قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴾ [المجادلة : ١] : وقال : ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ [الأنعام : ٣٣]، وقال : ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ﴾ [البقرة: ١٤٤]. فكل هذه الآيات فيها تحقيق الفعل بـ « قد » ، كما يقول المؤذن تحقيقًا وثبوتًا:« قد قامت الصلاة ، قد قامت الصلاة». فقوله تعالى: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ ﴾ أى : هو عالم به ،مشاهد له ، لا يعزب عنه مثقال ذرة ، كما قال تعالى : ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ . وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ . إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [الشعراء: ٢١٧ ـ ٢٢٠] . وقال : ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [يونس : ٦١] وقال تعالى : ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ [الرعد : ٣٣] أى: هو شهيد على عباده بما هم فاعلون من خير وشر . وقال تعالى : ﴿ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [هود: ٥] وقال تعالى : ﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ [الرعد: ١٠]: وقال تعالى : ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [هود : ٦] ، وقال : ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ [الانعام : ٥٩] . والآيات والأحاديث فى هذا كثيرة جداً .

وقوله : ﴿ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أى : ويوم يرجع الخلائق إلى الله ـ وهو يوم القيامة ﴿فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : يخبرهم بما فعلوا فى الدنيا ، من جليل وحقير ، وصغير وكبير ، كما قال تعالى : ﴿يُنَبَّأُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ ﴾ [القيامة : ١٣] . وقال : ﴿ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ [الكهف : ٤٩] . ولهذا قال هاهنا : ﴿وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ والحمد لله رب العالمين .

(١) المسند (٢ : ٨١) ومسلم (٢٢٨٤ / ١٨) ولم يعزه صاحب التحفة (١٠ / ٤٠٨) إلا لمسلم .